جديد بدف
jadidpdf.com

المشّاءة

سمر يزبك

رواية

يمكنكم تحميل المزيد من الكتب الرائعة والحصرية

بحجم خفيف جدا على مكتبة جديد بدف

https://jadidpdf.com

جديد بدف®
jadidpdf.com

المَشَّاءة

يمكنكم تحميل المزيد من الكتب الرائعة والحصرية
بحجم خفيف جدا على مكتبة جديد بدف
https://jadidpdf.com

سمر يزبك

المَشَّاءة

رواية

دار الآداب ـ بيروت

جديد بدف®
jadidpdf.com

المشّاءة

سمر يزبك / كاتبة سوريّة
الطبعة الأولى عام 2017
ISBN 978-9953-89-535-2

All rights reserved. No part of this book may be reproduced, stored in a retrieval system, or transmitted in any form or by any means without prior permission in writing of the publisher.

جميع الحقوق محفوظة. لا يسمح بإعادة إصدار هذا الكتاب أو أيّ جزء منه أو تخزينه في نطاق استعادة المعلومات أو نقله بأيّ شكل من الأشكال، دون إذن خطّي مسبق من الناشر.

صورة اللوحة للفنّانة: رندا مدّاح

دار الآداب للنشر والتوزيع
ساقية الجنزير ـ بناية بيهم
بيروت ـ لبنان
هاتف: 861633 (01) ـ 861632 (03)
فاكس: 009611861633
e-mail: rana@daraladab.com
info@daraladab.com

/Dar.Al.Adaab @DarAlAdab daraladab.com

جديد بدف
jadidpdf.com

إلى رزان زيتونة، في غيابها المرّ.

يمكنكم تحميل المزيد من الكتب الرائعة والحصرية
بحجم خفيف جدا على مكتبة جديد بدف
https://jadidpdf.com

يمكنكم تحميل المزيد من الكتب الرائعة والحصرية
بحجم خفيف جدا على مكتبة جديد بدف
https://jadidpdf.com

لا أعلم إن كنت مهتمًّا بملمس الأوراق، أو كنت تفعل كما أفعل حين تلامس أصابعي سطحها، ولن يُفيدك أيّ تفصيل أضيفه حول أصابعي حين أمرّرها فوق الأسطر التي دوّنتها يداي. أفكّر في أمر الآن، وهو أنّني لو بسطت هذه الكمّيّة الضخمة من الأوراق المكدّسة داخل علب كرتون، فهي ستكفي لصنع طائرة ورقيّة بحجم الطائرة التي تحلّق فوق رأسي. لا تصدّق أنّ ما يهمّني الآن قد يعني أحدًا غيري. كلّ ما أكتبه لك قد يختفي، وإذا ما أُتيحت لك فرصة قراءته، فسيكون ذلك مصادفة غريبة، لا تختلف عن كوني مختلفة عن بقيّة البشر. لقد وُلدت وأنا لا أستطيع التّوقُّف عن المشي. أقف وأنطلق بالمشي. أمشي وأمشي. أرى الطريق بلا نهاية. تقودني قدماي وأمشي. أنا ألحق بهما فقط. لا أفهم لمَاذا حصل ذلك، وليس مطلوبًا منك أن تفهم! لأنّ تعويذتي هذه غير مهتمّة بما قد تفهمه.

جرِّبْ أن تفعل هذا، وستجد أنّها طريقة ناجحة للتخلُّص من هدير الطائرة. اسحب ورقة بيضاء ـ اسحبها بنعومة، ولا تجعل بقيَّة الأوراق المكدَّسة فوق الرزمة تتهاوى. اسحبها كما لو أنّك تلامس شريانًا في قلبك، ثم ضعها فوق سطح قاسٍ، كما أفعل مع صينيَّة القهوة حين أقلبها وأحوِّلها إلى سطح مكتب. أنا أحمل القلم الأزرق الذي وجدته وسط الرزم. أنا أبدأ. أنت لا تباشر قبل أن يكون الصوت قد بدأ بالظهور. لا تتوقَّف إلّا في حال وقعت وأغمي عليك من التعب. التعب وليس الخوف، لأنَّ حمل القلم الأزرق واللعب به مع الكلمات فوق صفحة بيضاء إذا لم يحقِّق غايته، فهذا يعني أنّ وصفتي قد فشلت، وأنّ الورق الأبيض لا يحبّك، وأنّ هدير الطائرات لن يختفي.

لا أعرف من ستكون، لكنّي أُخمِّن أنّك سوف تقرأ هذه الكلمات. قد لا يعنيك ذلك كثيرًا الآن، لأنّك ما زلت الشخص المجهول، ولا تتذمَّر من استطراداتي الكثيرة، فأنا لم أدرس في المدرسة كما يفعل معظم الأطفال، لكنّي قرأت كلّ ما وصل إليّ من كتب. حتى لو حفظته غيبًا ولم أفهم معناه. الكثير من الكتب لم أفهم معناها، وكانت الستّ سعاد تكركر بالضحك وهي تراني أفتح المجلّدات الضخمة وأحشر نفسي بين صفحاتها، بخاصّة مجلّدات تاريخ الفنّ.

لا تظنّ أنّني خائفة، ولكنْ أظنّ أنّ وجودي كان من الأخطاء الكثيرة التي أرى أنَّ الله يسهو عنها بين وقت وآخر، وربّما له من وراء ذلك حكمته القاسية. كما سبق وأخبرتك، إذ عليّ أن أذكِّرك

دائمًا بأنّ عقلي في الأسفل، ولا أستطيع إيقاف هذا الشيء اللعين في قدميّ. كان لديّ حلم، وهو أن يتركوني أمشي وأمشي حتى أفقد الوعي! هذا ما كنت أريد تجربته لأعرف أين ستقودني قدماي.

قالت أمّي إنّهم اكتشفوا ذلك مبكّرًا، وإنّني ما إن أقف منتصبة على قدميّ حتى أندفع نحو الأمام، وهذا غريب! ولكن عليك أن تصدّقه. اعتقدوا أنّني مصابة بخلل عقليّ، لكنّ الأطبّاء أثبتوا أنّ عقلي سليم. أمّي رفضت وضعي في مشفى الأمراض النفسيّة. الجميع يسمّونه مشفى المجانين. خافوا منّي، وهذا لم يحزنّي. فلطالما كرهت التواصل مع العالم الخارجيّ، ولم أجد فائدة من تحريك هذه العضلة الثقيلة داخل فمي، والتي يسمّونها لسان.

أدركت أنّني لا أتوقّف عن المشي، ولم يكن ذلك واضحًا بالنسبة إليّ بداية، فأنا لا أذكر متى عرفت الألوان! كما وجدت أنّ لي أنفًا صغيرًا، وشفتين مثل حبّة الفستق، كما تقول أمّي. لست واعية للحظات قيدي الأولى. كانت أمّي أثناء تنقّلاتنا، تضمّ يدي اليُمنى إلى يدها، وتربط اليدين بوشاح قاسٍ أو حبل. لكنْ، أثناء عملها كانت تقوم بتقييدي بطريقة مختلفة. تفعل ذلك وهي تبكي. ولم تتوقّف عن تكرار فعلها هذا حتى اختفت في أحد الأيّام. سأخبرك كيف كانت تقيّدني! أستطيع أن أتذكّر المرّة الأولى التي اكتشفوا فيها أنّ رأسي هو بين قدميّ. حينذاك، كنت في الرابعة من عمري، وكنت أرافق أمّي إلى مقرّ عملها. كنت

مقيّدة في الغرفة الخاصّة بعمل مستخدمي التنظيف في المدرسة. كانت أمّي مسؤولة عن تنظيف المراحيض والصفوف وإعداد القهوة والشاي لغرفة الإدارة والمعلّمات. المدرسة كانت في وسط دمشق. أمّا بيتنا، فكنّا نحتاج إلى ركوب باصين للوصول إليه من المدرسة، وهو يقع في نهاية «مخيّم جرمانا»، جنوب دمشق.. سأكون سعيدة لأجلك لو أنّك لا تعرف هذا المكان.

في ذلك اليوم، حين أدركتُ أنّني لا أتوقّف عن المشي، كانت أمّي تقفل أدراج الخزائن في غرفة المستخدمين. فكّت وثاقي، ومدّت يدها لتربطه بمعصمها، شهقت واستدارت! كانت مجرّد لحظات، وهي ترتّب غطاء رأسها ثم تستدير نحو الخارج وتغيب لدقائق، في تلك الدقائق سارعت قدماي بالمشي. ما الذي فعلته في الخارج أمام الباب الحديد للمدرسة؟ لا أعرف، لكنْ، وما إن حلّت أمّي وثاقي حتى شعرتُ بأنّ أجنحة نبتت من أصابع قدميّ، واستدرتُ باتّجاه الشارع. خلال دقائق، صرت في عالم آخر، لم يراودني البكاء حينذاك. لحقت بقدميّ برضًى تامّ. عليك أن تصدّق أنّني كنت أمشي في الشارع وعلى الرصيف بخطّ مستقيم، ولا أعرف ما يُحيط بي، حتى تحلّقت حولي مجموعة من الناس، وأمسكت بي. كانت رجلاي لا تتوقّفان عن الحركة، ولم أصرخ. سألوني عن اسمي واسم أهلي، حينذاك فقدت النطق، أو هكذا اعتقدت، فأنا لا أذكر صوتي، ولا أعرف سوى الغناء الذي ينبعث أثناء الترتيل. كنت أنظر إلى أفواههم المتحلّقة حولي، كأنّها حفر صغيرة على حائط. يجب أن تعرف أيضًا أنّني لم أحدِّد الوقت الذي مرّ، قبل أن أجد أمّي فجأة واقفة، وهي

تولول وتبكي، وترفعني بين ذراعيها. كنت ضئيلة الحجم، وظنّ الناس أنّني بالكاد أبلغ الثالثة من عمري. ضمّتني وركضت بي. لم تتحدّث أبدًا عمّا حصل، ولم تحاول استدراجي إلى النطق، لكنّنا قضينا أربع سنوات ونحن نتنقّل بين الأطبّاء وهي تحاول فهم حالتي. منذ تلك الحادثة، فقدتُ النطق نهائيًا، ولم أسمع صوتي إلّا وأنا أرتّل القرآن. وهذه قصّة أخرى، سأحكيها لك.

لا تظنّ أنّك تقرأ رواية الآن، فما أكتبه هو الواقع، وأنا أكتبه لمحاولة فهم ما حدث.

لقد عادت حياتنا طبيعيّة، وبقيت أذهب مع أمّي ملتصقة بها، ولكنّي صرت أقضي وقتي في غرفة السيّدة المسؤولة عن مكتبة المدرسة. كانت أمّي محبوبة، والكلّ يتطوّع لمساعدتها. كان فيها شيء من الانكسار الخفيّ والذليل، والصامت أيضًا. وكانت جميلة. لكنْ نبت فوق شفتها شاربان ناعمان. أمّي خجول، بالكاد تتكلّم. تمشي ورأسها مطأطأ، حتى إنّني كنت أرى حدبة أعلى ظهرها تنمو وتكبر مع مرور السنين. أمّي لطيفة وهادئة إلى حدّ يثير الغضب، وكنت أعمد إلى إغاظتها لتصرخ ولأرى عينيها تلمعان وتقدحان، وقد فشلتُ في هذا الأمر غالبًا. إذا استطعتَ أن تتخيّل أنّ لك ابنة مثلي، لا بدّ أن تفقد عقلك! أمّي لم تخبرني أين اختفى أبي. قالت يومًا بشكل مفاجئ، إنّه سافر، ولم تعد تذكره على الإطلاق. كان هذا في العام نفسه الذي اكتشفتُ فيه أنّني لا أتوقّف عن المشي، وأنّني لن أنطق.

في مكتبة المدرسة، تغيّرت حياتي مرّة واحدة. منذ الخامسة

من عمري وقبل أن أجيد كتابة الحرف. بقيت في تلك الغرفة طوال سنوات دون أن أتوقّف عن المشي، كنت أدور وأدور، تحت عينَي مسؤولة المكتبة وكان اسمها الستّ سعاد. وقد اهتمّت بي أكثر من أيّ شخص عرفته في حياتي. للستّ سعاد قصّة أخرى سأرويها أيضًا. هناك الكثير من الحكايات التي ستعرفها إذا قُدِّر لي أن أعيش. المهمّ الآن أن أروي لك كيف اختفت أمّي.

عندما بلغتُ وأتتني العادة الشهريّة، قرّرت أمّي أنّني يجب أن أبقى في المنزل، صونًا للشرف، كان أخي يكبرني بسنتين. ووضعتُ غطاء على الرأس. كان حجابًا ملوّنًا. كنت أضعه على شكل وردة، وهذا ما كان يضحكني ويفرحني. صارت أمّي تربطني بالسرير الوحيد في غرفتنا، وتذهب إلى عملها. شهور الصيف كانت تقضيها قربي.

في ذلك اليوم، لم أكن أعرف ما يحصل، لأنّ حياتنا بدت كأنّها تشدّنا من أذنابنا. صرت أسمع هدير طائرات، وجيراننا يختفون، ورجال بثياب عسكريّة ومدنيّة يقتحمون البيوت. يسمّونها هكذا: دوريّات أمن! كنت أراقب ما يحصل ولا أفهم. أخي كان يدرس في الجامعة، لم نكن نراه كثيرًا، أنا وأمّي. بيتنا مكوّن من غرفة واحدة في داخلها المطبخ والمرحاض. كنّا نستحمّ في المطبخ. أمّي تتحرّك كأنّها مُراقبة طوال الوقت، وأنا وُلدت ورجلاي تقودانني. فقدت لساني، وأخي كان غاضبًا على الدوام، لكنّه بدا أكثر عصبيّة في الشهور الأخيرة. في التلفزيون، كنّا نسمعهم يتحدّثون عن عصابات تسرق وتقتل. أخي كان يقول:

كذّابون، وأمّي تصرخ في وجهه وتطالبه بأن يصمت. كان سريري جميلاً، وأنام فيه مع أمّي. منذ أن وعيت أعيش في إحدى زواياه. أخبّئ في صندوقه كتبي التي حصلت عليها من المكتبة، والقرآن الكبير بطبعته الذهبيّة، والذي حفظته غيبًا. هكذا اعتدت العيش. كان الحبل الذي تربطني أمّي به يكفيني لأتحرّك ضمن مساحة الغرفة. وكنت أستطيع الوصول إلى النافذة، ومدّ رأسي كيفما أشاء. عندما يخرجان من البيت كانا يقفلان الباب بالمفتاح. كرهت الوسائد الإسفنجيّة والحصير في البيت. بقيت أجلس في سريري بشكل دائم. سريري كان عالمي كلّه، أنظّفه في اليوم مرّات عدّة. ملاءته أغسلها بيدي، وعلى السرير وسادتان كبيرتان إضافة إلى وسادة صغيرة تنام في حضني، وهي على شكل مثلّث. لونها أخضر، وعليها زهور حمرٌ مطرّزة. في الليل أضعها تحت قدميّ. لقد أخبرتك بأنّ رأسي أسفل قدميّ، وهو رأس غامض وغير مفهوم بالنسبة إليّ.

السرير ليس نحاسيًّا. هو من الخشب، ضخم وقويّ. كنت أقفز في الهواء وأرمي نفسي فوقه، وبين فراش السرير وصندوقه الخشبيّ، أخبّئ الكثير من أوراقي، وأكياسي الملوّنة، وصوري المفضّلة التي كانت أمّي ترفض أن ألصقها على الجدران. في المساحة التي تفصل السرير عن زاوية الجدار، كان هناك صندوقي الذي وضعت فيه هدايا الستّ سعاد، من الكتب والأقلام والألوان، سأخبرك عن هذا الصندوق أيضًا، وعن كتبه وأوراقه، وزهوره القماشيّة. لم أستخدم الخزانة الحديد التي استعملتها أمّي. ثيابي كنت أضعها في صندوق من الخشب قرب السرير في

الجهة المقابلة للجدار. في الواقع، لم أكن أملك الكثير من الثياب، عندي «بيجامات» كثيرة وملوّنة. تشتريها أمّي من سوق «الحرميّة»، وهي سوق رخيصة للثياب المستعملة. أستخدمها في النوم لأسابيعَ فقط ثم أحوّلها إلى قماش لتنظيف بيتنا. تشتريها أمّي مهترئة في الغالب. وهذا لم يكن مهمًّا، لأنّني أحببت ألوانها دائمًا.

في ذلك اليوم، وكنت مع أمّي في الباص الأبيض الصغير، نقف عند أحد الحواجز. كالعادة، يدي مقيَّدة بحبل عريض وقصير، لا يتجاوز المترين بين يدي اليمنى ويد أمّي اليسرى. كنت أجلس ملاصقة لنافذة الباص، وكلّ شيء يبدو غريبًا من حولي. منذ حوالى سنتين لم أخرج من الحارة التي وُلدت فيها. كنت في غاية السعادة، لأنّنا سنزور الستّ سعاد، وقد طلبتُ أن أحضر مع أمّي. كانت تلك الزيارات أهمّ ما حصل لي، خصوصًا تلك اللحظات ونحن في الطريق إليها.

تستطيع التفكير بالروائح الغريبة التي كانت تخرج من الباص، يُفترض أن أسمّيه حافلة بالفصحى، لكنّها كلمة لا تعجبني. كنت أشمّ روائح الأجساد، والصيف حارّ، والنوافذ عندما نفتحها يلفحنا هواء ساخن، ووجدت نفسي أنظر إلى الأمام. هذه المرّة الثانية التي يتوقّف فيها الباص، قالت أمّي إنّه الحاجز الكبير، ونزل اثنان من الركّاب، قال أحدهما إنّ المشي أسرع هذه الأيّام، وإنّ هناك ثلاثة حواجز إضافيّة. علينا تجاوزها قبل الوصول إلى قلب دمشق، حيث تعيش الستّ سعاد. كان بيتها

قريبًا من «ساحة النجمة» وغير بعيد من المدرسة. ويلزمنا عبور ثلاثة حواجز للوصول إليه. لا بدّ أنّك تعرف الحواجز، لم أكن أراها في دمشق قبلاً. في الواقع، لم ألمحها ولم ينتبني أيّ فضول لمعرفة أيّ شيء عنها، رغم أنّها كانت الحديث الشاغل للناس. كانت الحواجز تختلف من مكان إلى آخر. شعرت بسعادة قليلة، لأنّ الناس بدأوا يستخدمون الدرّاجات. كانت هناك درّاجة واحدة يستخدمها أخي عندما يعمل نادلاً في أحد مطاعم «باب توما»، وأنا كنت مهتمّة بتنظيفها وتجميلها، وربط الشرائط الملوّنة حول مقودها، ثم قمت بتخطيط لوحة صغيرة ووضعتها على طرفيْ المقود. كانت اللوحة بحجم الكفّ ورسَمْتُ عليها خمس أقدام، وثلاثة حبال بألوان مختلفة، وكفًّا زرقاء، وثبّتُّها بلاصق شفّاف حولَ حوافّ المقود لتحمي أخي، الذي لم يكن مهتمًّا بما أفعله، ولم يُبدِ أيّ تذمُّر.

كنت قرب النافذة إذًا، سنعود إلى حكاية الحاجز.

عبر نافذة الباص أراقب راكبي الدرّاجات، وأحسدهم. وأفكّر في أنّه لو سُمح لي بقيادتها فسيكون آخر ما أتمنّاه. كانوا يتخطّون الحاجز بسهولة أكبر. لا يقفون في طابور السيّارات. وعندما سمعنا صراخًا، كان الحاجز أمامنا مباشرة. لا بدّ أنّك تعرف الحاجز، ولا داعي لأن أفسّر لك. رغم أنّ العلاقة بين الكلمة ومعناها تشغلني كثيرًا. كانوا مجموعة رجال من مختلف الأعمار، بعضهم يرتدي البزّة العسكريّة، أمّي تقول إنّ الرجال الذين يرتدون الثياب المدنيّة هم من جيش الدفاع الوطنيّ، وهو مجموعات أُنشئت حديثًا لمراقبة الناس وحفظ سلامتهم. هكذا يقولون في التلفزيون. أخي يقول إنّهم مجموعات من المرتزقة، وأمّي كانت تصرخ به ليصمت. تغلق النوافذ، ثم تمسكه من يده وتدخل المطبخ، والذي كان عبارة عن ستارة تقسم الغرفة إلى

قسمين. الستارة لعبتي المفضّلة في تجريب سكاكين المطبخ وإحداث ثقوب مربّعة فيها. كان قماش الستارة من النوع القاسي. أحد وجهيها من البلاستيك والوجه الثاني كان من القماش المطبوع بمربّعات ملوّنة. ما كنت أفعله أنّني أقصّ بالسكّين المربّعات ذات اللون الأحمر، وأجمعها. سَبَّبَ هذا لأمّي غضبًا شديدًا، حتى إنّها كانت تخفي السكاكين الثلاثة التي كنّا نملكها، ولم تكتشف هي ولا أخي مكان تلك المربّعات، لكنّ أخي في أحد الأيّام، وهو يمرِّر يده على درّاجته الملوّنة بالمربّعات الحمر، نظر إليّ وغمز بعينه، ثم أتى لي في اليوم التالي بورق لاصق أحمر ومقصّ صغير. لذلك، كنت ألمحهما من خلال الثقوب التي صنعتها وهما يتمتمان وراء الستارة. أعرف أنّهما يتشاجران. أمّي ترتجف وتمسك بمعصم أخي، وتحدّق فيه وعيناها محمرّتان من البكاء. أمّا أنا، فكانت تشغلني بقع الضوء المتحرّكة والناتجة من ثقوبي الحمر، والتي كانت تتمايل على الجدار المقابل للستارة كسرب طيور، وعندما كنت أسحب الستارة، كان أخي ينسلّ صامتًا، وعيناه غريبتان مثل تمثال من شمع. الآن، نحن أمام هذه الحواجز التي كانت سببًا لتلك المشاجرات بين أخي وأمّي، يبدو أنّ هذا الحاجز لرجال المخابرات وجيش الدفاع الوطنيّ. وماذا تعني كلّ هذه التسميات التي تتردّد باستمرار أمامي؟ لم أفهم أيضًا، إلّا أنّهم جميعًا يحملون الأسلحة في أيديهم.

أمّي التصقت بي، والرجال لم يغادروا مقاعدهم، والسائق

أطفأ المحرّك. لم يكن بإمكاننا التحرُّك. وراءنا صفٌّ من السيّارات، وأمامنا الكثير من الباصات والسيّارات. الشارع مزدحم بالسيّارات والباصات والشاحنات. صفٌّ طويل بلا نهاية. نهر من السيّارات. رغم الضجّة كنت أسمع صوتًا من مقدّم الباص حيث يجلس السائق: تيك تاك تيك تاك. كان يصدر من المقود الملوّن بالخرز الأزرق، ومع كلّ حركة وصوت التيك تاك، يتحرّك رقّاص يتدلّى من المقود، ومنه تتدلّى كرة زجاج تلمع في الداخل بنجوم فضّيّة. أراقب الكرة، وتلتصق أمّي بي وتحيطني بذراعيها. نسمع الصراخ ولا نفهم ما يحصل. لم يكن ما حدث ليؤثّر في سعادتي، وأنا ذاهبة لأرى الست سعاد، وأراقب النجوم الفضّيّة تتطاير داخل الكرة على مقود السائق! لكنّ الصراخ تعالى. ظهرت امرأة تولول وتنتف شعرها. في الجهة المقابلة، كان هناك رجلان يرتدي كلٌّ منهما بزّة عسكريّة، واثنان بثياب عاديّة، ويحمل كلٌّ منهما سلاحًا ضخمًا. أيضًا لم أعرف نوعيهما. لكنّ لونهما كان رماديًّا غامقًا هذه المرّة، ولم يكن أخضر داكنًا أو أسود! المرأة كانت تجثو على قدم أحد الرجلين وتصرخ، والآخران يقومان بنزع سترة الشابّ القطنيّة، ويخفيان رأسه فيها. يظهر جسده، وبطنه. يضربه أحدهما بعقب البندقيّة، هل تعرف؟ كانت هذه المرّة الأولى التي أرى فيها شيئًا كهذا، ولم أغمض عينيّ، وأمّي لم تفعل! كنّا نحدّق والجميع يفعل مثلنا. نتفرّج صامتين، والشابّ النحيل الذي سقط على الأرض تحوّل إلى كرة تحت أقدام الرجلين.

كان يصرخ بقوّة. المرأة سقطت مغشيًّا عليها، ورأينا مجموعة من النساء تتقدَّم، وتتحدَّث مع الرجال الذين توقّفوا عن ضرب الشابّ، لكنّهم حملوه، وجرّوه، وأحدهم صرخ: يا ابن الشرموطة! كان رأس الشابّ متدلّيًا. عيناه تفتحانْ وتغمضان. لم يُجب، ولم يُصدر أيّ ردّ فعل. صار وجهه أمامنا مباشرة، رأيته يبكي عبر زجاج النافذة، قبل أن يأتي رجلان آخران ويحملاه. أربعة رجال يحملونه، من أربعة أطراف. من يديه وقدميه، ثم يفتحون صندوق السيّارة. يرمونه فيه، فيطلق صرخة عالية، ثم يغلقون الصندوق، ونسمع صوتًا غريبًا، لم أعرف ما هو، لكنّ رجلاً ضخم الجثّة يرتدي ثيابًا مدنيّة، كان يحدّق في هُويّته ويصرخ، قبل أن يركب السيّارة التي وضعوا الشابّ فيها وانطلقوا.

بعد ساعة جاء دورنا على الحاجز. التفتيش ضروري. كنّا تقريبًا حبسنا أنفاسنا. وصمتنا بعد انطلاق السيّارة. كنت أحرّك رأسي بسرعة بين جهات عدّة، وأمّي تضمّني وتهمس: لا تخافي. أنا لم أكن خائفة. كنت أحاول حفظ الصور بعينيَ فقط. عندما دخل رأس الرجل العسكريّ في قلب الباص، توقّفتُ عن الحركة، ونظرتُ إليه. ابتسمت له. ابتسم لي. وصرتُ أحرّك رأسي له، فصرخ. توقّفت عن الحركة، وأمّي قالت له إنّني مجنونة.

طلب البطاقات الشخصيّة لنا. دقّق في كلّ اسم. وهو يتفحّصنا متذمّرًا!

وأنا أردت أن أقفز من النافذة، وبدلاً من ذلك قمت بإخراج لساني، فهم يعتقدون أنّني مجنونة، وهذه الفرصة مناسبة لي. عندما خرج لساني، وضعت أمّي كفّها على فمي، وأنا صرخت. كانت بضع دقائق، والرجل ينظر إليّ بغضب. الرجل الواقف إلى جانبه طلب منه أن يتركنا وشأننا وأن يكون لطيفًا، كان أيضًا عسكريًّا ويحمل بندقيّة ضخمة، أضخم بندقيّة رأيتها في حياتي! كانت فوّهتها مصوّبة نحونا، وكنت خائفة. سمح لنا الرجل بالمرور.

الساعة الثانية التي قضيناها لنصل إلى الحاجز الثاني، كانت ثقيلة. أمّي تزعجني وتشدّني إليها بقسوة. أنا لا أتحرّك. وكانت تحاول أن تخفيني في صدرها. السيّارات تُحيط بنا من كلّ الجهات، والباص يتحرّك ببطء، وكدت أختنق. أنا نحيلة، لكنّ صدري كبير، لم أفهم لماذا على هذا الثقل أن يجعلني لا أستطيع التنفّس، فأشعر بأنّ خيوطًا من الماء تتدفّق وسط بطني، كنت أختنق مع غطاء رأسي الذي شددته بدبّوسين أحمرين، وبنطالي الجينز وقميصي الذي يصل إلى الركبة، والوثاق الذي كان يحكّني ويحرقني، والذي ربطته أمّي بإحكام قبل خروجنا، رغم أنّه كان من القماش، لكنّه يحكّني مع التعرّق. أردت الصراخ. ولم أستطع! كنت أريد النزول من الباص والعودة إلى البيت. حنجرتي تحرقني، ومع صوت تنفّسي أسمع طقطقة غريبة. لكنّ تفكيري في ما ينتظرني عند الستّ سعاد يجعلني أصبر.

في الطريق إلى الحاجز الثاني، رأيت الدبّابة للمرّة الأولى تسير في الشوارع. كان الناس يتابعون حياتهم كأنّ أمرًا عاديًا يحصل، أذكر أنّ المرّة الأخيرة التي تجاوزت فيها حدود حارتي كانت في صيف تمّوز قبل سنة تقريبًا. وكان عليّ الذهاب مع أمّي إلى سوق «التنابل» يسمُّونها سوق «الكسلانين»، في حيّ الشعلان وسط المدينة. كنّا نقوم بإيصال الخضروات التي كانت أمّي تعدّها للطبخ، والتي كانت توفّر مصروفًا لأخي في الجامعة، كنّا نحفر حبّات الكوسا والبطاطا والباذنجان، ونقطّع البقدونس والجزر، وكان هذا يستغرق منّا وقتًا طويلاً. كان كلّ ذلك يتمّ في البيت. أحاول القيام بأكبر جهد ممكن قبل عودة أمّي من عملها في المدرسة، فأغسل الخضار والأعشاب جيّدًا، وأُزيل عنها كلّ أنواع التربة والحشرات والحلزون الصغير العالق بين ثنايا الأوراق الخضر. أقشّرها، وأقطّعها، أمّا حَفْرُ حبّات الكوسا والباذنجان، فقد كنت أتركه ليديّ أمّي، لم تكن تعجبني الحُفَر التي تظهر بعد إفراغ حبّات الكوسا والباذنجان والبطاطا. كانت بشعة فعلاً. البقدونس كان لعبتي المفضّلة. أحوّله إلى ما يشبه الغبار. أقطّعه حتى تصطبغ أصابعي باللون الأخضر، ثم أقوم بتعبئته بأكياس صغيرة من البلاستيك. حتى البازلّاء، كنت أحضّرها للطبخ، أقشّرها، وآكلُ القليل منها، وأخبّئ بعضها، وأصنع منها بعض الأساور، وألوّنها بالأحمر المفضّل عندي.

في إحدى المرّات، اكتشفت أمّي أنّ الدود يخرج من تحت صناديق الخشب التي كوّمتُها في زاوية السرير، وعندما نبشت

الأغراض، رأيتُ كيف تحوّلت أساوري الحمر إلى حبّات سود من العفن، وكانت الديدان داخلها. أمّي ضربتني حينذاك، ولم تكن تفعل ذلك دائمًا، لكنّها حين تفعل، كانت تستمرّ في ضربي حتى أفقد وعيي، وتجهش بالبكاء، وتلعن حظّها والعمر الصعب الذي تعيشه.

كان يقوم بإيصال الخضروات إلى بيتنا شابّ أكبر منّي بقليل. لقد طلب منها صاحب محلّ الخضار بعد زيارتنا الأخيرة في ذلك الصيف، وكثرة الحواجز، أن تبقى في البيت وهو سيقوم بإيصال الخضار، ومن ثم يأتي لأخذها مرّة ثانية.. حينذاك عرفتُ ذلك الشابّ. كان هو مَن يقوم بإيصال الخضار ويعود لاسترجاعها. لم يكن مسموحًا لي التحدُّث مع الغرباء. أمّي كانت تقول إنّني مجنونة! وهذه قصّة أخرى سأرويها لك، أعني قصّة الشابّ الذي لم أعرف اسمه. لكنْ ليس الآن، كنت أنوي أن أروي قصّة الحواجز، لكنّي تذكّرت المرّة الأولى والأخيرة التي رأيت فيها الحاجز، وعندما تذكّرت الحاجز، قفزت ألوان الخضار التي كنت ألعب بقشورها وأصنع منها أشكالاً ولوحات، لذلك سهوت عن القصّة الأساسيّة.

لا تقلق، لن أخفي عنك أيًّا من التفاصيل، سأروي لك كلّ ما أقدر عليه، وأنا هنا في القبو أراقب من النافذة نهاية الصيف.

الحاجز الذي رأيته للمرّة الأولى قبل سنة كان غريبًا. احتجنا لعبور حاجزين قبل الوصول إلى الشعلان. كان الحاجز

مؤلَّفًا من مجموعة رجال عسكر، وخلفهم كان باص أخضر كبير ممتلئ بالجنود. أشار أحدهم إليّ ضاحكًا وأنا حدّقت فيه بسعادة، ثم غمزني بعينيه، وهو يقوم بذلك، لكمه جنديّ آخر على رأسه مُوبِّخًا. ضحكتُ، لكنّ السيّارات البيض والرجال الذين يحملون البنادق ويسدُّون الطريق، كانوا مخيفين، لم ألمح حينذاك أكياس الرمل المنتشرة الآن، ولم تكن هناك دبّابات. كانوا رجالاً فقط يوجّهون بنادقهم إلى الباصات وإلى المُشاة ويفتّشونهم. لم أشعر بالخوف، فلا داعي للخوف، لولا فوّهات البنادق التي كانت تجعلني أرتجف. هكذا، فهمت معنى الحاجز، عندما كانت أمّي تصل متأخّرة، وتردّد باستمرار أنّها وقفت عند حاجز «الجسر الأبيض»، ثم وقفت عند حاجز «ركن الدين»...

لم أعرف أنّ الحواجز صارت أشكالاً وأنواعًا، إلّا عندما خرجتُ للمرّة الثانية والأخيرة من بيتي، حيث كان الشابّ الذي يأتي بالخضار الموحلة إلينا، ثم يعود ويستلمها نظيفة ومقطّعة وملوّنة، وحيث كنت أنتظر زياراته بلهفة. أستطيع تذكُّر لون عينيه. كانتا صافيتين، وكان يقول لي إنّه يعرف أنّني لست مجنونة كما يُقال، فأضحك. ثم كان يقوم بتفريغ الكيس الكبير من الخضار، وكنت أساعده، ونتلامس، ويضع يديه على صدري، وأسمح له بذلك. والحبل طويل بما يكفي لألمسه. كانت أمّي تترك النافذة مفتوحة من أجل تفريغ الخضروات.

الشابّ اختفى ولم نعد نلمحه، أمّي قرّرت الأمر فجأة، ثم

رمت أحمر الشفاه الذي كانت تستخدمه منذ سنوات، والذي تحوّل إلى قطعة معجونة صغيرة، مهملة في درج الخزانة. اكتشفت أمّي أنّني أستخدمه، عندما عادت مبكرة من عملها ووجدتني أضع منه على شفتيّ. كان طعمه مرًا ويترك حبيبات على شفتيّ، وكنت فردت شعري. لم أخبرك بأنّ شعري طويل. لونه عسليّ! عندما يكون العسل مخلوطًا بالشمع. حينذاك عندما كان شعري عسليًا، ارتديت أحد فساتين أمّي الملوّنة. لون الفستان أخضر، وأزهاره صفر وبيض، مثل الأقحوان. كنت أفكّر في أنّه يمكن أن أكون حديقة، وكانت هذه المرّة الأولى والأخيرة أيضًا التي أرتدي فيها فستانًا بأزهار الأقحوان، فعندما عادت أمّي يومذاك على غير العادة مبكرة من عملها، ووجدتني أقطّع البقدونس وأصنع من نثاره دوائر ومثلّثات، وكان الكيس الكبير موضوعًا وسط الغرفة والخضروات حوله، وأنا لم أرفع رأسي وأنظر في وجهها، نفثت وتنهّدت، ثم جلست القرفصاء بجانبي، ثم مدّت يدها وأمسكت بي، جذبتني من ذقني بقوّة، ثم نظرتْ إليّ بعينيها المرعبتين. استمرّ الأمر لدقائق عدّة، ثم قامت من مكانها، بالهدوء نفسه. لم يحصل شيء، لكنّ قلم أحمر الشفاه اختفى، والفستان الذي كنت أرتديه، وجدتُه مكوّمًا وممزّقًا على حافّة شبّاك غرفتنا. ثم اختفى الشابّ. وصارت أمّي تأتي بأكياس الخضار، ثم تحملها مرّة ثانية. وصار أخي يعود إلى البيت مبكرًا.

كلّ هذا مرّ بسرعة، لأنّني نسيت الشابّ بعد أيّام عدّة. ثم

جاءت أمّي بسترات من الصوف، وقالت إنّنا سنحوّلها إلى وسائد، ثم قرّرتْ أنّه لا يجب التفرُّج على التلفزيون في غيابها. حصل هذا منذ سنتين، وأنا كنت أصمت، ولم أقترب من التلفزيون في غيابها، عندما كانت تعود تسمح لي بمشاهدة المسلسلات التركيّة المدبلجة معها، وكنت أسمعُ أصواتًا تدقّ رأسي وهي «تفصّص» لبّ عبّاد الشمس أثناء ذلك، ولم أعترض. لم يكن الأمر مهمًّا بالنسبة إليّ. لولا الصداع الذي يسبّبه لي صوت طقطقة اللبّ.

كنت أُعيد قراءة الكتب التي حفظتها غيبًا، رسوم الحروف تذهلني. لم أتذكّر لاحقًا ما حصل لولا أنّني أحاول شرح القصّة لك. تجنّبت النظر في عينيها بعد الحادثة التي جعلت الشابّ يختفي. لم أخرج من البيت أبدًا. كانت أمّي سعيدة ببقائي في البيت، وأخي أيضًا كان راضيًا ومطمئنًّا.

زيارة الست سعاد كانت المرّة الأولى التي أرى فيها العالم الخارجيّ منذ سنتين. أمّي متوتّرة، وهذا ما لم أفهمه. غاضبة بشكل متواصل. عندما خرجنا أمسكت بي خائفة، ومشت وهي تلتفت حولها، وكنت أنقاد وراءها كنائمة. في ليل ما قبل الزيارة، أمّي لم تنم بسبب هدير الطائرات ودويّ القذائف. أصحو معها مع الصوت، ثم أعود إلى نومي، وعندما تسقط قذيفة أخرى، وأصحو، كنت أجدها جالسة في السرير. عيناها مفتوحتان. ألمح ثبات الحدقتين من خلال ضوء القمر. كانت أمّي تذوي يومًا بعد يوم. أرى عظام وجنتيها، والشعيرات فوق

شفتها العليا، وقد تحوّلت إلى شاربين أسودين. صارت تدخّن بعض الأحيان. دخان رائحته كريهة، وصدرها يسعل في الليالي. تغيّرت حياتنا، ولم أفهم حتى ما حلّ بأخي، لأنّه بدأ يغيب عن البيت. سمعته يتشاجر مع أمّي لأنه ترك الجامعة. كان صراخهما يعلو، وضربته أمّي في إحدى المرّات فاختفى لأيامٍ عدّة، وعندما عاد وجد أمّي مريضة في فراشها، وكنتُ تبوّلتُ على نفسي وبقيت محمومة لأيام. حتى أمّي صارت تدخّن بشراهة. وتركت كلّ الأواني التي نستخدمها للطعام على الأرض، وبقينا يومين كاملين من دون خبز، وفي إحدى المرّات عندما استيقظنا على صوت غريب، هكذا... سأ... سأ... سأ... سأ، واكتشفت أمّي أنَّ في غرفتنا فأرة كبيرة، أظنّه كان جرذًا! فتحتِ النوافذ، ونظّفتِ البيت ورمتْ أكياس الزبالة وجبال قشر «البزر» التي كوّمتها قرب السرير، ثم عادت إلى حالتها الطبيعيّة.

لا أستطيع أن أذكر لك كيف مرّت تلك السنتين. ما حصل على الحاجز أفقدني ذاكرتي. حتى عينا الشابّ الذي سمحت له بجسّ صدري، لم أعد أذكرهما تمامًا. أذكر اللمعة والصفاء في بياضهما، أمّا لونهما، فلا أذكره.

أحاول التركيز لأخبرك بحكايتي الأولى.

ونحن نتقدّم ببطء داخل الباص باتّجاه الحاجز الأخير، كان هناك، وعلى اليسار منّا، أربعة رجال، يرتدون بدلات أنيقة على الضفّة الأخرى من الأوتوستراد. لا يحملون سلاحًا. على

الأقلّ، لم أرَ الأسلحة في أيديهم، لكنّ السيّارات تقف أمامهم وإلى جانبهم، وينزل الرجال من سيّاراتهم بهدوء وحذر. أحد الأربعة الأنيقين كان يقوم بتفتيش السيّارة. لم يكونوا يشبهون أيًا ممّن على الحواجز الأخرى. نظّاراتهم أنيقة. ربطات أعناقهم كبيرة. شعورهم مرتّبة ومصفّفة ولامعة، كأنّهم ممثّلون مشاهير. الغريب أنّهم كانوا هادئين والنّاس من حولهم يتحرّكون بطريقة آليّة. أحدهم فقط كان يحمل جهازًا لاسلكيًا. الرجل الجالس وراء مقعدنا قال إنّهم من المخابرات الجوّيّة. لم أعرف ما يعنيه هذا، لكنّ الرجفة في صوت الراكب أخافتني، رغم وجوههم النظيفة الملتحية.

فكّرت بأنّ علينا اجتياز كلّ هذا الطريق الطويل، لنحظى بنهار في بيت الستّ سعاد، مع أنّنا لم نكن تجاوزنا الطريق الذي يؤدّي إلى ساحة «باب توما»، ورغم أنّ هناك دويّ قذائف يُقال إنّ الطائرات تلقي بها على مقربة منّا، إلّا أنّني كنت سعيدة، لأنّني أنتظر الهدايا، وحصّتي من الكتب والثياب الملوّنة، والأدوات المكتبيّة التي لم تنقطع الستّ سعاد عن تزويدي بها خلال السنوات الماضية. الألوان المائيّة والأقلام الخشب والفحم... أشياء كثيرة تنتظرني! كان مكتبي الصغير بجانب السرير، والكرسيّ الجلد من هداياها أيضًا.

كنت أستغرب هداياها. أمّي تقول إنّها لم تنجب أولادًا، لذلك فهي عطوف، ولو أنّ لديها أولادًا لما اهتمّت بأمري. هذا الكلام لا يعنيني. قالت إنّها سوف تسافر وتترك البلد كما يفعل

الكثير من الناس الآن، ولديها مجموعة أغراض تريد أن تعطينا إيّاها. قالت أمّي إنّنا سنعود مع زوجها بالسيّارة، لأنّ الأغراض كثيرة، وأنا كنت «أزقزق» من الفرح، لذلك ما رأيته في طريق الباص الطويل ونحن نجتاز الحواجز لم يعنِ لي شيئًا، رغم أنّ صدري بدأ يحرقني من قطرات العرق التي تدفّقت بغزارة منّي، مع أنّني حشرت صدري داخل قمصان عدّة، وارتديت تحت القميص بلوزة ضيّقة لتطمسه، لكنّه كان يثقلني ويترجرج. هل أخبرتك أنّ صدري كبير؟! هو مصدر إحراج لي فعلاً! كنت ارتديت قميصي الفضفاض الأحمر، ولم أكن معجبة بشكلي، لأنّ القميص واسع وطويل، ورجليّ نحيفتان وقصيرتان.

توقّف الباص أمام رجال الحاجز الذي سننفذ منه إلى بيت الستّ سعاد، حيث لن يعترضنا المزيد من الحواجز، أو كما قالت أمّي عندما نصل ساحة «باب توما»، سنكمل الطريق مشيًا على الأقدام. وما إن نطقت أمّي جملة: مشيًا على الأقدام، حتى ضحكتُ، وتغيّر العالم أمامي! هذا يوم حظّي، سوف أمشي!...

كان الباص لا يزال واقفًا، عندما شعرت بحاجتي إلى التبوّل، ولم أكن لأفهم ما يعنيه تساقط العرق الغزير من كلّ أنحاء جسمي، ولا حتى وجع مثانتي. كانت الأنفاس الحارّة تحيط بي، ومن كلّ الجهات. بدوْنا كأنّنا نعوم على بحر من السيّارات التي يتقافز بينها بعض البشر. الراكب من خلفي ينفث أنفاسًا حارّة، وأمّي تنظر إلى الأمام. كانت أمامنا سيّارة، ولم

أعرف ما يحاول الركّاب النظر إليه! كانوا يتململون، وينفخون، ونزل اثنان منهم، وأشعل كلٌّ منهما سيجارة، فنظرت أمّي إليهما بتشفٍّ. كنّا خرجنا منذ ثلاث ساعات، ويبدو أن لا نهاية لهذا الطريق.

قال السائق إنّه سيترك هذه المهنة، وسيبيع خضارًا على الطريق. صمت الركّاب.

كانت هناك امرأتان، واحدة منهما على يدها رضيع يبكي طوال الوقت. فكّرتُ في أنّني كنت يومًا طفلة وكنت أترك وحدي، ولم يكن هناك قيد في معصمي. كم هو سعيد هذا الرضيع، بينما العالم من حوله يركض! حتى أصواته غير مفهومة، الأصوات تهاجمني. نسمع هدير الطائرات في السماء، ودويّ انفجارات بعيدة، لكنّ الناس بدوا غير مبالين. أمّا أنا، فقد كنت أرتجف، وصارت قدماي ترتجفان، وأمّي تراقبني بخوف. أمسكتني ووضعت يدها على كتفي، ومالت برأسها وهمست: لا تخافي. لم أكن خائفة تمامًا! لكن كنت على وشك التبوّل في ثيابي. الرجل الجالس في المقعد الأمامي، مدّ يده وأعطاني منديلاً. أخذته أمّي ومسحتْ وجهي. كانت السيّارة التي أمامنا تتحرّك، ويقوم رجال الحاجز بتفتيشها، فكّرتُ في أنّني سعيدة، لأن لا شيء يعني لي، وأنا لا أحبّ ولا أكره! ولم أفهم لِمَاذا عليّ أن أكون ما أنا عليه؟ وعرفت حينذاك، أنّني لا أرغب فعلاً في الخروج من بيتنا. وعندما بدأ السائق يتحدّث إلى أحد رجال الحاجز، كنت أفكّر في أنّني لا أعرف

من أنا، وفي أنّني لا أملك أيّة مشاعر، وكلّ ما يحصل لي الآن بسبب امتلاء مثانتي بولاً.

كان الحاجز محروسًا بخمسة رجال. هذه المرّة اثنان منهم مدنيّان. العسكريّ الثاني كان يفتّش الباص وركّابه. يفتح حقائب النساء، يمدّ يده، يحرّكها بطريقة دائريّة، ثم يرمي بالحقائب إليهنّ. ينظر إلى الرجال بإمعان أكثر، ثم يراقب ما تحت المقاعد، والجميع صامتون. كنّا ننظر إليه، وإلى الرجل الآخر الذي يدور حول الباص ويتفحّصه بالدقّة نفسها. لمحت الحواجز الإسمنتيّة من بين السيّارات على الطرف الآخر، أحجار الحواجز ملوّنة بالأحمر والأبيض والأسود. الحواجز منتشرة في شوارع كثيرة من دمشق، خصوصًا في الساحات. في «ساحة الأمويّين» حيث توضع فوق الحاجز المدهون بألوان علم البلاد، أكياس من الرمل. أكياس بيض وسمر، تصنع جدرانًا في الفراغ، وفي «ساحة المحافظة» عند تمثال «يوسف العظمة» الذي أصابته قذيفة، وأُعيد بناؤه، كنت قرأت في أحد الكتب التي حصلت عليها من المكتبة، أنّ هذا التمثال تمّ تغييره من سنوات.

هذه الحواجز التي كنّا نراها قبلاً تنصف الطرقات، تحوّلت إلى جدران تفصل بين الشوارع. جدران متوسّطة الحجم، وأكياس الرمل صارت جدرانًا في الشوارع، لكنّ أكثر ما كان يعجبني في الحواجز، بخاصّة حواجز «ساحة الأمويّين»، هو البرّاكات الخشب ذات اللون الأخضر، والتي تشبه بيوت الكلاب في القصص التي كانت بحجم قبضة الكفّ، وكنت

أستعيرها من المكتبة، وقد استطعت الفوز بثلاث منها. كانت الستّ سعاد تقوم بتجديد المكتبة أحيانًا من مالها الخاصّ، لذلك كنت أحصل في المقابل على القصص القديمة. في بعض الأحيان، تشتري الكتب لي، وعندما قامت قبل خمس سنوات بإهدائي نسخة من القرآن، نسخة مذهّبة بغلاف جلد أحمر، وخطوط مزخرفة بلون العسل. حينذاك أيضًا تغيّرت حياتي، وهذه قصّة أخرى سوف أرويها لك لاحقًا. لكنْ، وقتذاك، ونحن على الحاجز، كنت معجبة بالبرّاكة الخشب الخضراء التي تكفي لوقوف رجل عسكريّ داخلها. فكّرت في أنّ الأمر سيكون رائعًا، لو عشت أنا وأمّي وأخي، في بيت خشب أخضر مثل هذه البرّاكة، لكنّ حلمي بتأثيث البيت في رأسي، اعترضه الرجال الذين يفتّشون الباص، وهو أبيض وصغير ويجب أن نضغط أحجامنا لكي نُحشر فيه، ونحتاج أن نحني جذوعنا ورؤوسنا. لم أفكّر قبلاً في هذا الأمر، لكنّ منظر العسكريّ الذي يُدخل رأسه في صدره لينظر تحت المقاعد، جعلني أفكّر للمرّة الأولى، في أنّنا نتحوّل إلى ما يشبه دائرة غير مكتملة ونحن نصعد هذه الباصات البيض الصغيرة التي تمتلئ بها شوارع المدينة.

لم يعثر رجال الحاجز على ما يجعلهم ينزلوننا من الباص، كما حصل في الحاجز السابق مع الشاب، لكنّ رجل الحاجز الذي كان يتمعّن في البطاقة الشخصيّة للشابّ الجالس في المقعد الخلفيّ، مدّ يده وصفع الشابّ بقوّة، فارتطم رأسه بالحديد،

عند ذاك صرخ العسكريّ وهو يدقّق في هويّته: انزل يا حيوان.

توقّفت عن الارتجاف، ونسيت مثانتي، لأنّ الشابّ وهو ينزل، وقع في حضن أمّي، ولم تصرخ. بقيتُ واجمة، وأنا أمسكته برأسه، فنظر إليّ. كانت عيناه شبه بيضاوين. سوادهما ثقيل من جهة اليسار. تكوّر وأشاح بنظره عنّي، واستطاع أن يتحرّك، ثم سحبته يد العسكريّ، وأوقعته أرضًا... حدث هذا وكلّنا صامتون، رغم أنّني بدأت أشعر بتدفّق سائل حارّ بين فخذيّ يحرقني مع حبّات العرق، التي «تكرج» من سُرّتي وحتى أسفل الحوض. بقيت جامدة. كان العسكريّ، يركل الشابّ، بينما الواقف بجانبه يحمل رشّاشه ويصرخ به: من جوبر يا ابن الكلب!

«جوبر» هي المنطقة التي لا تبعد كثيرًا من «ساحة العبّاسيّين»، حيث كانت هناك الدبّابات والحواجز، وهي المنطقة التي كانت الطائرات تحوم فوقها. لم أفهم ما يحصل سوى أنّ جوبر مُحاصرة من قِبل الجيش، وأنّ هناك قذائف تسقط فوقها، وأنّ أشرارًا كثيرين يعيشون فيها، وأنّني سأموت إن تحرّكت الآن. لم أكن خائفة، أعني لم أصرخ أو أبكي. السائل الحارّ نزل من تحت المقعد وانتبهت أمّي، وهنا صرختُ، وفي تلك اللحظة، حصلت الأشياء بسرعة. كنت أضمّ فخذيّ وأحاول جعل صدري داخل قميصي أكثر، وأمّي تلتصق بيدي، وتحكم شدّ القيد، لكنّها وهي تفعل ذلك، قامت يد ما بسحبها. ربّما أكثر من يد! رأيت كفوفًا عدّة وأيادي. رأسي ارتطم بالمقعد

الذي أمامنا وأمّي انزلقت بين يديّ، ثم هبطتْ من الباص منحنيةً، وهي تكاد تقع أرضًا لولا أن أمسكها رجل يقف إلى جانب رجال الحاجز الأربعة.

كان الحبل يحكُّني ويؤلمني، وشعرت بأنّ يدي ستُنتزع من مكانها. هم يشدّون أمّي، وذراعي تشدّها من جهة أخرى. كانت أمّي قد أحكمت ربط معصمي بشدّة، لكنَّ تلك الشَدَّة لم تكن كافية لتُبقي ربطة القيد حول معصمي. تحرّرتُ من تلك الربطة فجأة! عينا أمّي تراقبانني بهلع. لكنّني صرت حرّة.

الحبل اختفى. نهايته في معصم أمّي. داسته الأقدام.

كنت أجلس على الأرض بداية ولم أتحرّك، لكنّ أمّي صرخت بقوّة وهي تشير إليّ. لم تعد تنطق. كانوا ينظرون إلينا بغرابة، وأحدهم يمسكها، وهي تنظر إليّ بذعر، بينما يقومون بتفتيش الشابّ الذي من "جوبر".

هل يمكن أن تفكُر في ما حصل؟ تستطيع أن تتخيَّل تلك اللحظة، وأمّي ترجو العسكريّ أن يتأكّد أنّها ليست في قوائمهم المطلوبة، وأنّني في تلك اللحظة، تحرّرت منها، وأنّ باقي الركّاب نزلوا مسرعين عندما أمَرهم الرجال بالنزول لتفتيشهم، واجتمع ثلاثة عسكريّين انضمّوا من الجهة المقابلة حيث الحاجز الإسمنتيّ الملوَّن بعلم البلد. حينذاك، صارت أمّي على الناحية الأخرى، وهي تصرخ، وتحاول أن تمدَّ يدها إليّ من بين الجموع المحتشدة، وأنا كنت أنظر مذهولة، وأشعر بأنّ السائل الحارّ «اندلق» دفعة واحدة، بعد أن تجمّع في سروالي.

حينذاك أيضًا، كنت أمشي.

فعلاً كنت أمشي! ولا ألتفت! أسمع صراخًا، وأمشي.

أنا أمشي.

أنا أمشي.

دائمًا ما أعجبت بفكرة الطريق الطويل الذي يمنعني من رؤية التفاصيل الصغيرة أمامي. كنت أرى طريقًا عليّ عبوره، وكان يلوح لي من بعيد، من بعيد جدًّا، وكان أحد العسكريّين يصرخ بي لأتوقّف. لم أكن أستطيع العودة. رجلاي تقودان خطاي إلى الأمام، وباعتبار أن لا أمام هناك، فعليّ الاصطدام بالرجال والنساء وتجاوزهم.

فجأة، ساد الصمت، بعد أن أطلق أحدهم الرصاص في الهواء وهو يصرخ: وقّفي.

لم أتوقَّف، ورأيت الناس من حولي يستديرون وينظرون بغرابة ويصمتون، ولم ألتفت إلى الخلف، لكنّي لم أعد أسمع الكثير من الضجيج. طلقات رصاصٍ فقط! كان هناك صوت يصرخ بي لأتوقّف، ولهاثٌ أستطيع تمييزه بأنّه لهاث أمّي، ولم أتوقف!

عندما دوّت طلقة رصاص أخرى، وبدا العالم متوقّفًا عن الحركة، حتى الهواء الساخن الذي كان يتحرّك بين حين وآخر، توقّف، وبدأت الرؤوس تشرئبّ من السيّارات تحثّني على العودة. لم أعرف ما يحصل وراء ظهري. صرخت أمّي باسمي!

ولم أسمع ما قاله الرجال، لأنّني لم أعد أميّز الأصوات، وأدركت أنّني ابتعدت عنهم، وأصبت بحنق مفاجئ، لأنّهم اعتقدوا أنّني بنت مجنونة، كلّ ما في الأمر أنّني لا أحبّ تحريك عضلة لساني، ولم أحاول حتى تحريكها. لساني لا يزال مربوطًا إلى مكان ما في حلقي، وحينذاك بعد أن صرخت أمّي باسمي، أردت أن أركل أكياس الرمل التي ظهرت أمامي على الجانبين، لكنّ قدميّ لم تطاوعاني، وبقيت أمشي وأتجاوز السيّارات، حتى سمعت صراخًا من جديد وهدير سيّارات تزعق بشدّة، وأصوات رصاص أيضًا، وشعرت بيد أمّي تمسك بيدي، وكانت هناك وخزة حادّة استقرّت في كتفي اليمنى، وتحوّلت إلى خيط حارق من النار؛ ولم أفهم لماذا انهال ثقل أمّي فوق جسدي، ولماذا رمت نفسها عليّ، ووقعتُ أرضًا على الإسفلت الحارّ، ولم أحرّك جسدي، وشعرتُ بأنفاس أمّي وهي تضمّني. كان تنفّسها غريبًا جدًا، تلهث وتشهق، وتعصرني بكفّيها، لم أرَ وجهها. كانت أنفاسها في أذنيّ، وكدت أموت، ولو حصل ذلك لما تغيّر شيء من هذا العالم. وددت أن أركل كلّ ما يحيط بي، لولا الجلبة التي أحاطتني، ورأيت «أبواط» العساكر المغبّرة، والمحيطة بي، إضافة إلى أحذية أخرى. كانوا كلّهم من الرجال، وكنت حينذاك أراقب الخيط الأحمر الذي ظهر فجأة على الجهة اليسرى، حيث كان وجهي يحترق على الإسفلت، ولم يكن اللون أحمر تمامًا. ربّما أسود. لا أعرف. لكنّني رأيت بشرًا يتحلّقون حولنا ـ أنا وأمّي؛ وكانت تحضنني،

وأردتُ أن أحرِّك عضلة لساني، لأنني لم أعد أسمع لهاثها، وكان جسدها يزداد ثقلاً، وحين اقترب منّا رجلان وحملا أمّي، لم أرفع رأسي لأرى وجهها، ووصلت حبّات الرمل إلى شفتيّ، رغم أنّ الحاجز الرمليّ كان بعيدًا. وعندما أمسك بي صاحب «البوط» الذي يصل إلى ما تحت ركبته، وكان هذا «البوط» يلمع، حملني بسرعة، وكنت خفيفة. أطفو. حينذاك فقط، شعرت برغبة كبيرة في النوم.

كان هناك زعيق امرأة، ولم تكن أمّي. أردت أن أنظر إليها. لم أستطع فتح عينيّ. كنت أهبط. أهوي. وكان هبوطًا لذيذًا. يشبه النوم فجأة في أرجوحة، لولا الألم الحارق في كتفي. وشعرت بجسد الرجل الذي يحملني، وميّزت ضربات قلبه. ولم يكن يلهث. لكنّ صوت لهاث أمّي لا يزال في أذنيّ... ثم... نمت.

عندما استيقظت، كانت أمّي قد اختفت نهائيًا، وعبرنا الحاجز.

صحوت منذ دقائق.

هكذا، وجدت نفسي ممدَّدة ومقيَّدة، وكنت أفكِّر في أن أضيف صفحات بيضًا فارغة الآن، وأنا أكتب لك من القبو، كوكبي السرّيّ الجديد.

لم أسأل الممرِّضة التي كانت تنظر إليّ بفضول، ولم أعرف أن أحرِّك عضلة لساني كالعادة، لمعرفة الوقت الذي مرّ، والذي أستطيع تصويره لك أو رسمه وكتابته على شكل صفحات بيض.

أفترضُ أنّ الصفحات البِيض الخالية من أيّ كلمة، قد تجعلك تفهم، لكنّي لست مؤهَّلة لأفعل هذا، حتى لا تضيع الأوراق التي أقوم بجمع كلّ عشر منها عندما تكتمل، وأُلصقها من الزاوية اليمنى، حيث تتوزّع علب الصمغ في القبو إلى جانب رزم الأوراق. الصفحات العشر بعد جمعها أخبِّئها تحت الفراش.

عندما سأنهي هنا الصفحات العشر الأولى، سأفعل الشيء نفسه.. لكنّني، وأقسم لك، عندما فتحت عينيَ وقبل أن أدرك أين أنا ممدّدة ومقيّدة! كنت قد لمحتُ ذلك الرسم الذي طالما أحببته، وهو رسم الأفعى التي ابتلعها الفيل في كتاب «الأمير الصغير»، كتابي المفضّل، والذي أحفظه غيبًا كما قلت لك سابقًا، هل قلت ذلك سابقًا حقًّا؟

فتحتُ عينيّ ورأيت حولي أشكالاً عدّة من أفاعٍ تطير منتفخة بأفيال داخلها، كما رسمها «أنطوان دو سانت أوكزوبيري»، وهو الأمر الذي أخافني. كان لونها يميل إلى الأزرق والأخضر. أمّا لون الفيل، فقد كان رماديًا يظهر من داخلها. لا أخفيك. كنت قد رسمتُ قصصًا كثيرة، وأنا في سنّ التاسعة، على طريقة كتاب «الأمير الصغير» وهي لا تزال في بيتنا. القصّة تدور حول حديقة حيوان، يضع المشرف عليها خطأ مجموعة قرود مع أسد ولبوة، وينسى الفصل بينها، وهناك في الحديقة قرّرت الحيوانات أنّ عليها أن تفعل أمرًا مماثلاً شبيهًا بهذا الخطأ. فقد اتّضح أنّ هناك ألعابًا كثيرة يمكن أن تلعبها الحيوانات، هذه قصّة أخرى، وليست قصّتنا. كنت فقط أحاول تذكيرك بالأشكال الطائرة الغريبة التي رأيتها وأنا أفتح عينيّ، فحضرت القصص التي كتبتها.

رفعتُ رأسي.

الضوء يدخل من النافذة، ولم تكن هناك أصوات. هناك امرأة تحدّق في عينيّ. هي الممرّضة التي بدت كأنها ظلّت فوق رأسي مثل تمثال. كان سريري جانب نافذة عريضة، نصفها

مفتوح، ومغطّاة بأسلاك معدنيّة، ومطلّة على غرفة كبيرة للمرضى. تحرّكت الممرّضة من فوق رأسي. كانت ترتدي ثيابًا بيضًا نظيفة، وتضع أحمر شفاه. لون أحمر الشفاه يشبه لون قلم أحمر الشفاه الذي رمته أمّي. أحمر... أحمر. بعد أن تحرّكت الممرّضة دخل الضوء إلى عينيّ. وكانت واقفة في منتصف الخطّ الفاصل بين طرفيْ النافذة، واستطعت رؤية المكان الذي أنا فيه.

حاولت تحريك عضلة لساني، فلم أستطع. يدي اليمنى لا تزال مقيّدة، ويدي الأخرى ملفوفة بشاش أبيض يصل حتى منتصف الصدر ويغطّي كتفي، لا أستطيع تحريك يدي الحرّة. ما إن حاولت النهوض حتى شعرت بنار في كتفي اليُمنى. اليد الأخرى كانت مقيّدة بسوار من الحديد دون سلسلة. القيد موضوع في أحد أعمدة السرير. كتفي تؤلمني. أنا أنام فوق السرير شبه عارية. لفّوا نصف صدري مع الكتف، ولم أفهم ما يحصل، واختفت الأشكال الطائرة بالثعابين التي تبتلع الفيلة. كانت الروائح الحادّة تنخزني، وإلى يساري كانت فتاة صغيرة نائمة. لاحقًا اكتشفت أنّها غائبة عن الوعي. عندما جاء الطبيب لمعاينتها كان جسدها مزرقًّا، وحول عينيها هالتان كبيرتان بألوان الأزرق والأحمر والأسود. ألوان مختلطة. لمَاذا علينا تحديد الألوان؟!

اقتربت الممرّضة منّي، وكانت تشبه فيلاً صغيرًا، ونظرت في عينيّ، ثم تكلّمت بسرعة، نظرت إليها ولم أجب. جاء شابّ ضخم يرتدي ثيابًا عسكريّة. نظر إليّ بسرعة، وأخبرها أنّهم قتلوا أمي خطأ، وأنّهم بانتظار أخي لاستلامي. ثم اقترب من الفتاة

الملقاة على السرير قربي، وهزّ السرير، فأصدرت الفتاة أنّة. فتحت عينيها ببطء، ثم أغمضتهما. نظرت الممرّضة إليها بازدراء، ثم خرجت من الغرفة. خمّنتُ أنّ الوقت لا يزال باكرًا، لأنّ لون السماء لا يزال قاتمًا. كانت الفتاة مقيّدة مثلي بسوار من حديد. السرير أبيض اللون، ذو دهان مُقشَّر، تتناثر بقع الصدأ على شبّاكه. في الناحية الأخرى امرأة ممتلئة، ويدها أيضًا مقيَّدة إلى السرير. خلتُ لوهلة أنّني أحلم، فكلّنا متشابهات. هل تتخيّل سعادتي حينذاك؟ لوهلة كنت سعيدة برؤية تلك القيود! وكانت الجملة التي رماها الشابّ العسكريّ تطنّ في أذنيّ، وتمرّ على شكل دخان يتبخّر في الغرفة.

رأيت من بين الأسرّة وأجساد النساء الملقاة عليها أشكال حروف هذه الجملة، وهي تطير فوق رأسي، ولم أشعر بوطأة ثقيلة على نفسي، كما حصل عندما لم أقدر على متابعة الحروف الطائرة في الغرفة، التي تحوّلت إلى حروف سُودٍ طائرة منعتني الانتباه إلى الفتاة في السرير المجاور، والتي بدأت تئنّ وتتحرّك في فراشها. وجهها جميل. أنينها عميق وحادّ، مثل صرير سكّين على زجاج! لكنّها لم تفتح عينيها لأفهم ما بها، أو لأشير إليها بعينيّ. قيدي الجديد الحديد، كان يمنعني من القدرة على التفكير.

مضت دقائق، ودخلت الممرِّضة نفسها صاحبة اللون الأحمر الفاقع، تدفع سريرًا نقّالاً، وعليه فتاة أخرى. كانت شبه صاحية، لكنْ يدها مربوطة وملفوفة بشاش. رجلها اليمنى وحتى بداية

الحوض أيضًا ملفوفة بالشاش الأبيض. وعيناها لم تكونا محاطتين بالبقع الملوّنة. وقفت الممرِّضة بيننا. الرجل الذي يضع مسدّسًا على خاصرته، يحشره بين البنطال والقميص، أشار إلى سريري، وطلب نقل الفتاة إلى سرير الخرساء الصغيرة. في الواقع أنا لم أكن صغيرة، لكنّ حجمي ضئيل، حدَّقت الممرِّضة في وجهي، ولم يكن لتحديقها معنى، ثم أخبرته أنّي مجنونة، وأدارت وجهها نحوي، وقبل أن أفكّر في أمر الحروف التي اختفت من سقف الغرفة، قلبوا الفتاة إلى جانبي. كان السرير صغيرًا، لكنّهم حشروها قربي، ثم قيَّدوا يدها إلى جانب العمود الثاني من السرير، فصرخت وهي تعضّ شفتها، وقد رأيتها تفعل ذلك ووجهها قد احمرّ بينما جسدها يتهاوى على السرير. أردت أن أبكي، لأنّ جسدها التحم بجسدي، ولم أستطع سوى أن أعضّ لساني. وشعرت بتلك الصرخات، مثل ارتجاج في داخلي... ثم خرجوا.

أدرت وجهي إلى الجهة الأخرى، حيث النافذة تطلّ على الغرفة الثانية، والتي كانت تحوي رجالاً. فأشحت النظر، وأغمضت عينيّ لأختفي. رسمت أشكالاً في الهواء لشخصيّات «الأمير الصغير»، من «البزنس مان» إلى الزهرة التي ألهبت قلب الأمير، والأفعى والرجل الغريب الأطوار، وكنت معجبة جدًّا بالكوكب الذي يوضع عليه جدارٌ واحد، وهو كان مكاني المفضّل.

الفتاة تنحنحت، وهمست بكلمات غير مفهومة. فأصبتُ

بالذهول واشرأبّ رأسي، وتجمّد الدم في عروقي. كان همسها في أذني، وكانت تبكي، والنور كان يزداد، وفجأة ظهرت معالم الغرفة التي تحتويني.

تستطيع أن تتخيّل الآن ما حلّ بي! كنت أظنّ أنّني عندما نمت، بينما الرجل يحملني بعد أن سقطت أمّي وعبرنا الحاجز، أنّ ذلك الهبوط الذي شعرت به وأنا أهوي في الظهيرة، هو ما حصل مع «آليس في بلاد العجائب»، وأنّني أدخل الغابة التي تتغيّر من زمن إلى آخر، وهذه الغرفة هي الغابة! هذا ما حصل... لقد ظهر النور فجأة في الغرفة! وعوضًا عن الأرنب الأبيض، كانت هناك ممرّضة ترتدي ثوبًا أبيض.

حاولت إزاحة رأسي، كي لا أسبّب الإزعاج للفتاة التي تئنّ. عندما عادت الممرّضة للظهور، وحملت الفتاة بمساعدة رجل، ونقلاها إلى الجهة المعاكسة، بحيث أصبحت قدماها قرب رأسي، وكانت قدماي تصلان إلى منتصف صدرها. كنت قد أغمضت عينيّ ثانية، حتى لا تنظر إليّ الممرّضة وتطالبني بالحديث، عندما هبّت رائحة نتنة من الفتاة ورأيت قدميها الزرقاوين والمنتفختين اللتين تنزّان دمًا، أدرت وجهي إلى الجهة الأخرى، ولم أبكِ، وعضضت لساني، وشعرت بملوحة تنزّ منه.

بعد أن أغمضت عينيّ، رأيت الستّ سعاد وهي تناديني لأسرع إليها. كانت واقفة كما هي دائمًا. تنّورتها السوداء وقميصها الأبيض. لم أرَها بثياب ذات ألوان مختلفة، وقميصها الأبيض المحاط بقبّة من «الدانتيلّا»، ولفائف شعرها الأشقر

المصبوغ والمرتّب بعناية، وأساورها الذهبيّة الرفيعة. هي نفسها كانت تقف في وسط عينيّ، وأنا أحاول إطباقهما بشدّة وأسمع صوتَيْ الممرّضة والرجل. لم أفهم عمّا يتحدّثان.

كانت الرائحة المنبعثة من الفتاة تخنقني، لكنّني سمعتها تناديني، أعني الستّ سعاد، وتهمس لي لأجلس جانب المكتب العريض. أمّي تراقبنا من فتحة في السقف، ثم تقوم الستّ سعاد وتغلق الباب، فتختفي فتحة السقف، وتختفي أمّي. وكما فعلتُ دائمًا في المدرسة، حيث عرفت للمرّة الأولى كيف أكتب وأرسم معها. كانت تأتي الستّ سعاد بالمناهج المقرّرة كلّ سنة وتدرّسني إيّاها. فعلت ذلك لسنوات عدّة. إذ كنت ممنوعة من الدراسة بسبب حالتي، كما أشار الطبيب لأمّي، وطلب منها وضعي في مشفى «ابن النفيس» لأنّه لم يجد تفسيرًا لحالتي! وكانت الستّ سعاد تربطني وتقيّدني بأحد عوارض المكتب، وهي تعتذر، وأمّي توصيها راجية بألّا تغفل عنّي، وأن تشدّ الربط جيّدًا. حدث هذا لسنوات طويلة، وصارت مكتبة المدرسة جزءًا منّي. الأصحّ صارت المكتبة كلّ حياتي.

كانت المكتبة تقع قرب الدرج المؤدّي إلى الطبقة الثانية من المدرسة، في نهاية الممرّ المقابل لغرفة المعلّمات، وتبعد من غرفة الإدارة، عبر ممرّ طويل وضيّق، تتوزّع على جانبيه الصفوف الدراسيّة، وهذا سهّل تواطؤ الجميع مع أمّي. المديرة ومساعدتها لم تكونا لتقبلا بما يحصل، ولم تكتشفا طوال السنوات التي مرّت ما حصل، لو أنّك تدرك ما حصل حينذاك، لو تعرف فقط كم

كنت سعيدة؟ كأنّني ملكت العالم! كنت أعتقد أنَّ هذا هو العالم كلّه! هل فعلاً هو العالم فقط؟ لمَ كان العالم موجودًا دائمًا في مكان آخر؟ كانت المكتبة كوكبي الخاصّ، يشبه الكوكب الذي عاش فيه «الأمير الصغير»، وهي إحدى أهمّ كواكبي السرّيّة. وكانت لي زهوري الكثيرة، لم تكن زهرة واحدة، رغم أنّ غرفة المكتبة لم تكن فسيحة. لكنّ جدرانها مليئة بالكتب. وكنت أحبّ رائحتها، رائحة غريبة! ما زلت أشمّها حتى اللحظة. رائحة ورق... أو ربّما... لا أعرف ما هي! لكنّها رائحة المكتبة التي لا تشبه سواها. أتنفّسها حتى اللحظة. كانت الكتب مغلّفة بورق أسمر، ومجلّدة به. في وسط كلّ كتاب ورقة بيضاء تحوي المعلومات. كنت أحبّ أن أسمع أسماء الكتب بصوت الستّ سعاد. رقم الكتاب. سنة طباعته. أحفظ الكتب واحدًا واحدًا. أحفظ حتى شكل أحجامها المختلفة. كانت كتب التراث موضوعة وراء مكتب الستّ سعاد مباشرة، لأنّها مُكلفة ومن الصعب فقدانها.

في الجدار الثالث، لم أعثر على كتب جديدة. كلّ الكتب قديمة. كانت هناك كتب التاريخ والفلسفة، والروايات المترجمة. الجدار الرابع كان مخصّصًا للصغار، والمفترض حينذاك أنّها كانت قصصًا لي. أطلت عليك، ربّما؟ لكنّني أشرح لك كيف رأيت الستّ سعاد عندما أغمضت عينيّ، وكانت قدما الفتاة قرب وجهي. الفتاة التي رموها في سريري.

أحاول وأنت تقرأ الكلمات أن تفهم كيف رأيت الستّ

تناديني. كانت تجلس وسط مكتبها! إذًا وفي تلك
أراها تناديني، وأقترب منها، وأرى الدفتر الذي
فيه حروف الهجاء، ثم المساطر الملوّنة المتطايرة
، تلك اللحظة وأنا أهمّ بالاقتراب منها، كانت الفتاة
قد رفعت رجلها وألقتها فوق وجهي، وقفزنا كلتانا من الفراش. صرختُ بصوت عالٍ، وأجهشتُ بالبكاء، ولا تسألني لمَاذا حصل ذلك، فقد صار زعيقي يخرج رغمًا عنّي، وبدأت الفتاة ترتجف وتعتذر، لكنّ الممرِّضة دخلت، ومعها رجلان، أحدهما يرتدي ثيابًا عسكريّة، بقي واقفًا أمام الباب. تأتأتْ الفتاة بصعوبة بأنّ شيئًا لم يحصل، وأنّ رجلها وقعت بالخطأ فوق وجهي، وأنا لم أتوقّف عن الصراخ. كان أنفي ينزف دمًا، وعندما شعرت بملوحته، صرختُ أكثر، وهم يطلبون منّي التوقُّف عن الصراخ، وأنا لم أفعل، لكنّ الصفعة التي تلقّيتها من الرجل الذي يرتدي الثياب المدنيّة، ويضع مسدّسًا على خصره، أفقدتني الوعي، ولم أعرف ما حصل للفتاة، لأنّني أفقت في منتصف النهار، والفتاة في سرير آخر يبعد عنّي، وكانت تغطّ في النوم رغم الضوضاء.

عادة، أستطيع التنفُّس، لكنّ ألمًا كان يجعلني كلما تنفّست أشعر بأنّ سكّينًا حادًّا يخترق أنفي. لا أعرف ما حصل، لكنّني تذوّقت طعم الدم اليابس فوق شفتي، ولم أنهض، وقلبت جسدي إلى جهة الشبّاك المقابل، وكان الشقّ المفتوح بين طرفيْ النافذة قد بدا أوسع، وخلف النافذة كانت هناك نافذة من الحديد، وعرفت من خلال الأحاديث أنّنا في مشفًى نوافذه وأبوابه من قضبان الحديد، وأنّ رصاصة اخترقت كتفي، وقد خضعتُ لعمليّة، لهذا لن أستطيع التحرُّك قبل أيّام عدّة.

جاء الليل، وكنت أغفو وأصحو. لم أذقِ الطعام ورفضت تناول الأكل، وكانوا يقومون بمعاملتي بطريقة أفضل من باقي الفتيات، أظنّهنّ مريضات مثلي، وكنت أفكّر في اللحظة التي سأخرج من المشفى وأُترك كي أمشي، ثم أمشي، وأمشي، حيث سيفكّون وثاقي. كان هذا بحدّ ذاته سببًا يجعلني أتحمّل شتّى

صنوف الحشرات الطائرة فوق رأسي والبعوض، والروائح الكريهة وشراشف السرير التي تنحسر ويظهر تحتها جلد أسود عتيق، يحتكّ بجسمي ويلسعه.

في اليوم التالي، كنت أرسم داخل أحد كواكبي السرّيّة، وأنا مغمضة العينين، الرسم الأخير في كتاب «الأمير الصغير»، وهو صورة الصحراء... كانت هناك نجمة في السماء لونها أصفر، أسفلها خطّ منحنٍ يقاطعه خطّ دائريّ أعلى منه، ما يشكّل هضبة، هذا هو الرسم الأخير في الكتاب حيث يختفي «الأمير»، وأنا أطبق عينيّ بشدّة لإنهاء الخطوط، والفجر في أوّله. سمعت صوتًا يأتي من الغرفة المجاورة، كانت الفتيات نائمات، ولا صوت في المشفى. صمت غريب. عندما ارتطمت بالشبّاك أداة حديد أحدثت دويًا، أيقظت اثنتين من الفتيات، نهضتا بفزع ثم مالتا برأسيهما وكانت عيونهما شبه غائمة وشعرهما منكوشًا، وإحداهما لا تزال تضع لفافة بيضاء فوق رأسها، ثم عاد الصمت ثانية، فعادتا واستلقتا. الصوت تكرّر، وحاولتُ التلصّص على ما يحصل. لن تصدّق ما رأيت. كان مجال الرؤية بالنسبة إليّ خطًّا مستقيمًا يجعلني أرى الغرفة مثل مسطرة بلّوريّة متوهّجة، والشبك الحديد الرفيع الذي يفصل النافذتين لا يسمح بالرؤية. لكنّ ضوء الشمس كان يخترق الغرفة الأخرى عبر خطوط مائلة.

لم آكل منذ يومين، وأسمع قرقرة في بطني، وكانت قرقرة مسموعة، لا تشبه قرقرة بطني في القبو الآن. أدرت ظهري لهنّ وحدّقت في النافذة ذات الشبّاك المعدنيّ، وشعرت بأنّني ضائعة.

رغم أنَّ كواكب «الأمير الصغير» كانت تدور حولي، وأستطيع أن أراها بوضوح. أردت ترتيل القرآن وغناءه، لكنّني كنت ضائعة ولا أفهم شيئًا ممّا يحصل! لِمَ اختفت أمّي؟ ولِمَ أنا هنا؟ وأين أخي؟ ولماذا لا يدعونني وشأني؟ في لحظات أخرى، شعرت بالحرّيّة، سأكون وحيدة أخيرًا وأمشي، وأفهم نهاية هذا المشي وحركة القدمين، هناك حيث يسكن عقلي في أسفلهما! كنت أفكّر في أنّني سأظلّ أمشي، وربّما في رحلتي الطويلة، سأعود لتحريك عضلة لساني، وأرى أشياء مدهشة، وربّما أقفز إلى كواكب بعيدة وغريبة.

كنت أحاول شدّ الشرشف القذر إلى أسفل قدميّ، وأرخي جسدي بكلّ ما أستطيع، وأستعدّ لرحلتي المقبلة. كان ذلك الشقّ يواجهني مباشرة، ولك أن تتخيّل ما يعني شقٌّ طوليٌّ في نافذة! يجعلك ترى الحياة كأنّها عبارة عن مستطيل غريب الشكل، يشبه الأفعى التي تبتلع فيلاً.

كانت تبدو أمامي كأنّها ساقا شابّ، ليس مباشرة أمامي، لكنّني أراهما، أرى فخذيه. كانت المرّة الأولى في حياتي التي أرى فيها فخذيْ شابّ عارٍ. في السرير الأبعد منه، هناك شابّ وجهه ملفوف بشاش أبيض، وحول عينيه قماش أسود، يخترق نصف رأسه الأبيض الملفوف بالشاش، وكنت أرى يده. يده مقيّدة مثل يدي، وبالسوار الحديد نفسه. ورغم أنَّ شقّ النافذة المستطيل، لم يكن يتجاوز سنتيمترات عدّة، إلّا أنّني رأيت أنّ السرير الذي كان يجلس عليه لونه أسود وهو من الجلد، وبلا

ملاءة. وعلى السرير الذي يبدو أبعد، هناك اثنان من الشباب. كانا مستلقيين. أسمع أنينهما، وكانا «مطمّشي» العينين أيضًا، لم يكن بالإمكان رؤية أكثر من الخطّ المستقيم الذي تراه عيناي، ولم أكن أنوي جعل مَن حولي يشعرون بما أفكّر فيه. لم أعرف ما تحويه المساحة الباقية من الغرفة. السرير الأخير كان لرجل أكبر في السنّ. لحيته طويلة، وكانت هناك دماء حول وجهه.

لا أستطيع تفسير الأشياء لك كما هي حقيقة، إذ أفكّر في أنّه من الصعب أن تتكوّن علاقات بين الكلمات والحياة الواقعيّة بسهولة. الروائح التي كنت أشمُّها من حولي وكان معظمها يأتي من الغرفة المجاورة، كانت كريهة. لا أعرف كلمة سوى كريهة، ولا أجدها وافية! لكنّها كانت خانقة، وبالكاد أستطيع التنفّس.

قالت الفتاة التي على السرير المجاور وهي تهذي وحدها: هذه روائح دماء وتفسُّخ لحم! وأنا لم أصدّقها.

خلال دقائق، بدأت الضجّة في الغرفة المجاورة. يبدو أنّ الفتيات كنّ يعرفن ما يحصل. سمعت تنهّدات عميقة منهنّ. وبدأ الضرب. كانوا أربعة رجال. وقالت الفتيات إنّهم من المخابرات وليسوا من الجيش. لم أرهم بوضوح. سمعت شتائمهم والصراخ الذي يشقّ السماء. أصابعي حول بطني، وأغمضت عينيّ وأنا أسمع الصراخ والسباب، وكان الجرحى من المعتقلين. كان صراخهم مبحوحًا، ولم أستطع أن أفعل شيئًا، سوى أن أحرّك عضلة لساني داخل فمي، وأحاول جعله يعود إلى حنجرتي، وهي لعبة كنت أحبّ ممارستها لأتأكّد ما إذا كان بإمكان الإنسان ابتلاع

لسانه، لكنّني هذه المرّة بدأت أبتلعه فعلاً، وشعرت بألم شديد. وأنا أسمع صراخ الرجال الذين يضربون الجرحى الممدّدين فوق أسرّتهم. لم أجرؤ على أن أفتح عينيّ بدايةً، لكنّني قرّرت أنْ لا بأس في أن أعرف ما يحصل، فربّما سيفعلون هذا بنا، وعليّ الاستعداد.

كان الشابّ على السرير الثاني يجلس ويضع رأسه بين ركبتيه. حول عينيه قماشة سوداء، وظهره تبدو عليه آثار الضرب. صدره ملفوف بشاش أبيض سميك. وعندما اقترب منه الرجل، رأيته بشكل واضح. كان أنيقًا، لكنّه سمين بعض الشيء، وشارباه كثّان ولونهما يميل إلى الأحمر، ضرب صاحب الشاربين الأحمرين الشابّ الجريح على الشاش الأبيض وصرخ به، وكان الشابّ لا يردّ، ولا يبدي أيّ انفعال، فيضربه من اليمين، فيسقط الشابّ، ثم يعاود الانحناء ورأسه بين قدميه، وعندما يضربه إلى اليسار يفعل الشيء نفسه. المعتقل الجريح الثاني وهو ملتحٍ، وتبدو عليه آثار الدماء، ضربه في بطنه. كان لديه كرش واضح، ويفتح عينيه بوضوح، ولا يوجد أيّ جرح في جسده. وجهه مصطبغ بالدماء. يئنّ، ولكن بخفوت.

أنت تقرأ الآن هذه الكلمات، وتستطيع أن تتخيّل أنّ ما حصل يشبه الوقوع من غيمة إلى وادٍ عميق. هكذا تمامًا! كنت أنزلق وأنزلق، وأسقط ولا أتوقّف عن السقوط ولا تنتهي الهاوية، وكانت عيناي تدوران تحت سقف الغرفة.

لمحت أحد الجرحى يرفع رأسه أوّلاً ثم جسده. كان يشبه

هيكلاً عظميًّا. يبدو أنّه لم يتناول الطعام منذ زمن طويل، وكان ملتحيًا، وعيناه غائرتان، وما إن حاول الاستقامة، حتى جاء الرجل نفسه ولكمه على رأسه، فارتطم بالسرير المعدنيّ. أرى ذلك، ولا أفهم لمَاذا كان شكل الرجل على هذا النحو، إذ لم يسبق لي من قبل رؤية رجل عارٍ كما أخبرتك سابقًا، ولم أعرف من أجسادهم سوى جسد أخي الذي كان لا يتعرّى ولا يبدّل ثيابه إلّا في الحمّام. الآن كلّ هذا العري للرجال أمامي، لا أفهمه! هل العري قبيح إلى هذه الدرجة؟ وكان أصعب من دويّ الانفجارات القريبة من بيتنا، حتى إنّه كان أصعب من وجود مديرة المدرسة قرب المكتبة عندما تقوم بجولتها الصباحيّة، فتسارع الستّ سعاد إلى الخروج وتُلقي عليها التحيّة وتبدأ معها حديثًا طويلاً. في تلك اللحظات، كان قلبي يخفق، لأنّني أعرف أنّ وجودي لم يكن مسموحًا به، وأنّ المديرة إن عرفت بي ستوجِّه تنبيهًا للستّ سعاد، وربّما تغضب منها، وربّما تطرد أمّي! لذلك، وفي تلك الدقائق التي كانت تتكرّر في السنة مرّتين أو ثلاثًا، كنت أرتجف وأتبوّل في ثيابي، وعندما تعود الستّ سعاد، كانت تغمزني بعينها. وعندما كتبت لها على قصاصة ورق أبيض أنّني أريد الذهاب إلى البيت، طلبت منّي الانتظار لتعود المديرة إلى غرفتها، وعندما تكرّرت قصّة التبوّل للمرّة الثانية، صارت ما إن تختفي المديرة، حتى تبدأ بفكّ وثاقي، وتركض بي إلى التواليت الخاصّ بالطلّاب، وهناك حيث كنت أشمّ رائحة «الصنان»، كنت أفهم لِمَاذا كانت المديرة توجِّه التوبيخ المستمرّ لأمّي، لأنّها لا تقوم بالتنظيف جيّدًا، وأمّي التي تبكي عندما تسمع هذا الكلام،

تقول إنّها تفرك الأرض والبورسولان بكلّ أنواع المنظّفات.
سأعود إلى تلك الدقائق، التي كانت تعني لي الجحيم، بينما أنتظر المديرة والستّ سعاد، هذه أصعب الأوقات التي مرّت عليّ. أردت إخبارك بأنّ تلك الدقائق لم تكن تعني لي شيئًا، وأنا أبدأ معرفة ما يعني الخوف. لاحقًا، سأخبرك ما يعني الجوع، ولكنْ، وبما أنّني الآن أحاول ترتيب الحكاية لك، سأترك الجوع لأنّه يشبه مثلّثًا. أمّا الخوف، فهو يبني أفخاخًا لك في جسدك، ويصير جزءًا من أعضائك في الأحشاء، وهو دائريّ الشكل، لا بداية له ولا نهاية. يتوقّف الجوع عند حدّ، لأنّه ينتهي مع نهاية فعل الأكل، ومن الصعب تذكّره لاحقًا. أمّا الخوف، فيبقى داخلك مثل دائرة تصل بين القدمين وعضلة القلب، مركزها الساقان، وهي تلتفّ حولك وفيك ومن ورائك ومن خلفك، وتنتهي أسفل البطن، بالنسبة إليّ كانت تتسرّب على شكل سائل حارّ اسمه البول، ولكنْ حتى هذا التسرُّب حُرمت منه، لأنّني كنت أراقب الرجال وهم يضربون الجرحى، ليسوا جرحى تمامًا، كانوا أشبه بأجساد متهالكة لدمًى من البلاستيك تتحرّك بفعل نابض موجود في جوفها. كان بطني عبارة عن فراغ دائري ينتهي كالعادة في مثانتي، وبدأت أنكمش، وهم يلوّحون بقبضاتهم داخل الجروح، ويزعقون ويشتمون. كنت أفتح عينيّ أكثر لأفهم، لِمَاذا كانت مسبّاتهم وصياحهم على هذه الدرجة من الغرابة؟!

الممرّضة صباح اليوم التالي، ستقول لإحدى الفتيات إنّ أخاها في الغرفة الثانية، وإنّها وأخاها سيعودان إلى السجن ويبقيان فيه حتى يتعفّنا. تُجيب الفتاة بصوت واهن وغير مسموع،

فتردّ الممرِّضة ذات القبّعة الغربيّة، بأنّ هذا جزاء الخونة ومَن يهاجم ويتظاهر ضدّ سيادة الرئيس، ثم تكمل حديثها مع نفسها، وهي تلقي علينا نظرات فاحصة، وكنت أنظر إلى من حولي وأنا أستغرب إلى من توجِّه هذا الكلام، ما الذي يعنيه؟

لا أُخفي عليك. كان يضايقني عندما لا أفهم ما يُقال لي. شعرت بأنّني غريبة وعمياء، وكلّ ما يحدث من حولي غامض، لكنْ حينذاك، وأنا أنظر إلى الجرحى، تذكّرت أخي. أين يكون؟ هل عرف بما حلّ بي؟ وأين أمّي؟ وفكّرت في أنّ هناك لعبة ربّما، أو شيئًا من هذا القبيل! ليس الأمر بسيطًا لتصير أمّي تحت التراب، وتنسى أن تربط معصمي بيدها! ولم أستطع تحسّس معصمي مثلما أفعل عادة، لأنّ القيد الحديد كان قاسيًا ويؤلمني، وأردت تحريك عضلة لساني وأشرح للجميع أنّني أريد العودة إلى بيتي، إلى سريري تحديدًا، وأنّني أريد سريري وأوراقي وألواني، وأنّني حتى لا أريد الذهاب إلى الستّ سعاد، وعليّ الخروج من هنا حالاً. بدأت أصرخ وأنا أحدّق في الرجال عبر النافذة. توقّفت حركتهم، ودخلت الممرِّضة، وازداد صراخي، ثم رأيت أجسادًا غريبة حولي، وأنا أصرخ وأتكوّر، ولم يكن هذا صراخًا، لكنّه كان تمتمة غريبة سمعتها، وعضضت طرف السرير الذي اتّضح أنّه كان منجّدًا بالجلد الأسود. رائحته قميئة ومذاقه حامض، وصرت أعضُّه وأصرخ، وتبوّلت في ثيابي، بينما كانت هناك أيد تمسك بي من كلّ جهة، وتلقّيت صفعة على وجهي؛ ولم أفتح عينيّ لأرى ما يحصل حولي، لكنّهم بالتأكيد لم يكونوا أولئك الرجال في الغرفة الأخرى، كنت أسمع مع ذلك صرخات

الجرحى والصفعات كانت تنهال فوق وجهي. شيءٌ حارٌ وخزني في مؤخّرتي، وبدأت أفقد قوّتي، كأنَّ يدًا تسحبني إلى الأسفل، وخمّنت أنّها ستكون نهاية الهاوية التي أسقط فيها، ثم أغمضت عينيَّ ونمت.

عيناي تتلمّسان طريق الضوء. رأسي ثقيل. لا أفتح عينيَّ. كان الألم يحرقني في مؤخّرتي حيث حقنوني البارحة، رغم أنَّ هسيسًا كان يصدر قربي: اسسسسس... اسسسسس. ثم يحلّ الصمت، ويعاود الصوت نفسه، اسسسسس... اسسسسس... اسسسسس.

اعتقدت لوهلة أنّني فوق سريري، قرب أمّي، وأنّني أخرج من كابوس، لكنّ الصوت أيقظني: اسسسس... اسسس. أنت بخير؟ وفتحت عينيَّ بصعوبة، وأدرت رأسي، وكانت هناك فتاة على سريري. رأسها في الجهة الأخرى. قدماها متورّمتان عند رأسي. ضئيلة الحجم. لا آثار لدماء وجروح، أمّا رأسها فكان حليقًا بالكامل، رفعتُ رأسي. كانت جميلة رغم رأسها الحليق. بيضاء، بشرتها رقيقة. عيناها واسعتان مدوّرتان، أكثر عينين غرابة رأيتهما في حياتي. لا بدّ أنّني أحلم! الفتاة تشبه اللعبة الصلعاء. كانت تلفّ حول رقبتها شريطًا أسود، أخبرتني لاحقًا أنّه خصلة من شعرها التي اضطرّت لحلقه، لأنّه تساقط بكثافة في السجن. أحدّق فيها! تبتسم وتهمس: لا تخافي... في أيّ فرع كنتِ أنتِ؟ كوّرت نفسها، وأشارت إليّ لأفعل مثلها، لتلتقي نظراتنا.. وهذا كان صعبًا. كان يلزم لكلٍّ منّا التحوُّل إلى نصف دائرة

لتلتقي عيوننا. ولم يكن بإمكان أيٍّ منّا رفع رأسها أكثر من دقيقة. الممرِّضة والرجلان الواقفان على باب الغرفة والعسكريّ الذي يروح ويجيء في الممرّ، لن يسمحوا لنا بذلك. سوف نتلقى صفعة من أحدهم لو فعلنا ذلك.

همستْ من جديد: كنت بفرع فلسطين، بتعرفيه؟ بقيت أربعين يومًا. حرّكت رأسي لتفهم أنّني أسمعها. وأنّني لا أعرف ما يعنيه فرع فلسطين. كانت تتلعثم وشفتاها ترتجفان. المفترض أن أخاف منك، أضافت. وأنا هززت رأسي وصدرت منّي أنّة، ورفعت إصبعي وأشرت إليها بأن لا. أنت لا تستطيع أن تتخيّل كيف فعلتُ ذلك، إصبعي كانت تتحرّك يمينًا ويسارًا مثل رقّاص، وهي تتابع حديثها: أنتِ خرساء؟ هززت برأسي، نعم! ولم أعرف لم فعلت ذلك! فأنا لست خرساء، وكنت أرتّل القرآن وأغنّيه، لكنّني لا أرغب في الكلام، وأحبّ قراءة كتاب «الأمير الصغير» بصوتٍ عال، عندما يغيب أخي وأمّي عن البيت. كيف سأخبرها بأنّني لا أجد حاجة لتحريك عضلة لساني. هذا كلّ ما في الأمر. مع ذلك، أجبت بهزّة من رأسي أنّني خرساء. صمتتْ وصار وجهها حزينًا. كانت عيناها ساهمتين. الضوء القليل الذي يسمح لي برؤية تفاصيلها، جعلها تبدو أشدّ غرابة. كانت ترتدي بنطالاً من الجينز، وسترة قطنيّة من اللون الأسود. تبدو ثيابها قذرة، وهناك آثار خطوط زرق على ساعديها، وعند أعلى صدرها بقع زرق أيضًا. أخْفَتْها بأصابعها وأدارت ظهرها لي، ثم تكوّرت على نفسها.

الفتيات الأخريات يهمهمن ويهمسن. وواصلت الفتاة الصلعاء الأنين.

كنّا سبع فتيات، هناك أربعة أسرّة فقط. ودخل خيط شعاع شمس صغير اخترق الغرفة. عبره، رأيت ذرّات الغبار التي كانت قبل ذلك خيوطًا من الشمس. عندما رفعت رأسي لثوانٍ، انتبهت إلى أنّ وراء النافذة أغصانًا لشجرة تتمايل بنعومة. كانت السماء زرقاء صافية. سمعت ضجّة في الخارج. فوكزتُ الفتاة، ونظرتْ إليّ بشفقة، وأشرتُ إلى النافذة، فجلست كالملسوعة. وعندما نظرتْ إلى النافذة، قالت: ماذا؟ أشرت إلى خيط الشمس والغبار. ابتسمت بوهن، وألقت برأسها على السرير. كانت تنام من دون مخدّة. رأسها الأصلع على جلد السرير. أمّا أنا، فوضعوا لي مخدّة تحت رأسي.

الأسرّة الأخرى كانت بلا وسائد. قالت: كسروا لك أضلعك؟ وأشارت إلى الشاش الملفوف حول كتفي وصدري، وأشرت إليها بأصابعي هكذا! تعرف كيف؟ صنعت لها إشارة مسدّس بأصابعي؟ وضعتُ إصبعين على كتفي، على شكل مقصّ. فشهقتْ! أين؟ لم أجب. وكانت تحاول إغماض عينيها، ولم أفهم لمَاذا هي معنا! لا يبدو أنّها تعرّضت لما يتطلّب دخولها المشفى؛ وكنت أرى، عبر خطوط الشمس الناعمة التي انعكست على وجهها، ذلك الصفاء الذي يجعل من صورة وجهها طفلة لم تتجاوز السنوات. هذا بدا محيّرًا بالنسبة إليّ. لأنّ جسدها يبدو كأنّه لامرأة ناضجة، وقد كان جميلاً رغم الكدمات. ثم صارت

تدوّر رقبتها وتحرّك رأسها، وكنت أسمع أصوات طقطقة عظامها، وهي تحاول ليّ جسمها باتّجاهات عدّة، وأخبرتني أنّهم اعتقلوها على حاجز «ركن الدين»، كانت لا تنتظر أن أجيبها، فتكلّم نفسها وتنظر في عينيّ، وتتابع الهمس، وتطلب منّي برجاء أن لا أدعهم يحقنوني بالإبر، لأنّي لن أعرف ما يفعلونه بي وأنا نائمة! فأومأت إليها برأسي مستفهمة، وكنت أحاول أن أدير رأسي بين وقت وآخر بعيدًا منها وهي تتحدّث، حتى لا يرونا نتكلّم، فقد قاموا بصفع الفتاتين في السرير المقابل حين تمّ ضبطهما وهما تتحدّثان. حينذاك، وأنا أدير رأسي باتّجاه النافذة المطلّة على غرفة الرجال، رأيت من شقّ النافذة المستطيل جريحًا جديدًا. كانت رجله مربوطة إلى الأعلى بحبل طويل أبيض يرفعها، وكان الشاش الأبيض يغطّي جسده حتى منطقة الحوض. الشابّ عارٍ ونحيل ويرتدي سروالاً أحمر. أدرت رأسي وعدت إلى التكوّر حول قدميْ الفتاة. كانت تتكلّم على أيّام إضافيّة سوف تقضيها هنا، وهي لا تستطيع أن تجعلني أفهم، ثم قالت إنّهم تتبّعوا ما تفعله، وتنصّتوا على مكالماتها، وأنّها كانت تتظاهر، ثم نقلت الأدوية إلى الجرحى، وقد اعترفت بكلّ شيء، وهي ليست خائفة.

كوّرت نفسها حتى كادت تتحوّل إلى كرة، وقالت لي: أظنّ أنّني سأموت. ثم فردت جسدها وابتعدت عنّي، وأغمضت عينيها. صلعتها مميّزة وتظهر شكل جمجمة رأسها بشكل متناسق، حتى إنّ تدويرة رأسها وعينيها كانتا متشابهتين. بقيتُ هادئة حتى صباح اليوم التالي، ثم همست لي قبل أن تأتي الممرّضة والرجلان: ابقي صاحية!

صمتتْ عندما دخلوا، وجعلوها تقوم من الفراش بحركة سريعة. كانت بالكاد تمشي. فوجئتُ بأنّها بدت محطَّمة، واضطرّ أحد الرجلين لحملها. كانت تتراءى لي خفيفة، وهي تذهب وتغيب عن ناظري. كانت تحدِّق فيّ. عيناها مفتوحتان على اتّساعهما، وتشير إليّ ألّا أفعل. ترفع حاجبيها، وتتّسع عيناها، وتعيد الحركة نفسها بسرعة!

. . . اختفت الفتاة الصلعاء ذات العينين الواسعتين.

كان السرير ممتلئًا بالدماء، ولم أعرف من أين كانت تأتي، وأين كان جرح الفتاة الصلعاء، ونسيت سؤالها عن اسمها. كانوا يخرجون، وأنا أمسح الدم بأصابعي.

كانت الفتاة تنزف، ولم ألاحظ البقع الحمر الكبيرة التي غطّت بنطالها الجينز، ولم أصرخ. خفت أن يأتوا ويحقنوني بتلك الإبرة التي تحدّثت عنها الصلعاء، لكنّ هذا لم يكن مهمًا، لأنّ أخي بعد حوالى الساعة كان حاضرًا في المشفى لاستلامي.

حين ظهر أخي أمام باب الغرفة، دخلت الممرّضة مع الرجل وفكّا وثاقي، وأمسكا بيدي. كان أخي واقفًا بلا ملامح ولا مشاعر! جرّني بعد انتهاء إجراءات خروجي. أمسكني من يدي، وربط معصمي الأيمن بالرباط نفسه الذي اعتادت أمّي استخدامه، ثم ربطه بيده اليسرى، وقال كلمته الوحيدة قبل أن نصعد في

سيَّارة تاكسي: الحمد لله على سلامتك يا أختي، ولم ينظر في عينيَّ.

كان وجهه مثل الحجر. ورائحة الزنخ فوق السرير الجلديَّ، لا تزال في أنفي.

أستطيع أن أخبرك الآن كيف سارت القصَّة بعد ذلك، وعلى طريقتي، كما ألعب بالكرة الجنِّيَّة! وكما لو أنّ في داخلها نتفًا صغيرة من مرايا مكسورة، وأنا أرمي الكرة الجنِّيَّة، أمسكها بأصابعي، وأكزّ على أسناني، ثم وبضربة قويّة أرميها على الأرض، في تلك اللحظة، ترتطم الكرة الجنِّيَّة بالأرض، وتتحرّك المرايا الصغيرة داخل السائل الأزرق، ويُفترض أنّ لون المرايا فضّيّ. أعني أنَّ السائل الأزرق سيحرّك النتف الصغيرة للمرايا، التي ستعكس تلك التوهّجات المُشعَّة الكبيرة. هل تعرف ما هي الكرة الجنِّيَّة؟ هي صغيرة جدًّا، مصنوعة من المطّاط. عندما ترميها على الأرض، تظلُّ ترقص وتقفز أمامك. وبداخلها ألوانٌ عديدة.

أستطيع أن أروي لك الحوادث كما يحصل داخل الكرة الجنِّيَّة. دون أن تنتبه إلى أنّني ألعب الآن بها، وأمرِّر الوقت بانتظار عودة حسن. هي إلى جانبي. الكرة المفترضة في القبو المكدّس برزم الأوراق وبقايا أدوات طباعة، حيث أقوم بنقل الحكايات إليك، وهذا يفترض منّي أن أروي كيف تحرّكت بنا السيّارة من أمام باب المشفى الذي كان يعجّ بالناس وزعيق سيّارات الإسعاف، وأن أصف لك أشكال الممرّات التي خرجنا

منها، وأخي يمسك بيدي بقوّة رغم أنّه قام بتلك الحركة التي اعتادت أمّي القيام بها، وشدّ معصمي وآلمني، ولم أجرؤ حتى على التنفُّس بشكل غير معتاد، كتفي تؤلمني، ولم أعرف ما عليّ فعله! كنت أريد العودة إلى بيتنا، إلى سريري.

ويفترض بي أن أخبرك، بحسب حركة المرايا في اللحظة ذاتها، بأنّ رأسي كان يفكّر في الفتاة الصلعاء وعينيها الواسعتين وبالدم النازف على السرير الجلديّ، وأخمّن ما سيحصل لها، وإلى أين أخذها الرجلان، أو حتى يمكنني إخبارك بما حصل لها. لكن هذا غير وارد الآن، لأنّ شكل عينيها الكبيرتين الواسعتين والمعذّبتين، والجامدتين كان لا يفارق رأسي، وبقي حتى اللحظة وأنا أكتب إليك من قلب الحصار.

كيف لي أن أرسم لك تلك العينين كما فعل «الأمير الصغير» وهو يرسم الشكل الدائريّ لكوكبه الصغير؟ ذلك مستحيل الآن، لأنّك لو أضفت كلّ هذه الرسوم لاحتجت إلى أوراق أكبر من هذا الحجم بكثير. أمر مؤسف أنّ كلّ هذه الأوراق المكدّسة كانت بالحجم نفسه، إذ كنت أستطيع أن أضيف أحجامًا مختلفة بين الأوراق، وأُلصقها بالصمغ الموجود في علب من البلاستيك ذات غطاء أزرق، كما لون قلمي الوحيد هذا، وكنت رسمت لك شكل العينين الواسعتين، عينيْ الفتاة الصلعاء اللتين يختفي بياضهما؛ كما أستطيع وصف الطرقات التي مررنا فيها أنا وأخي بعد خروجنا من مشفى السجن، والسائق يضع على رقبته منشفة ورديّة باهتة مبلّلة بالكامل. ربّما بفعل القطرات التي تنهمر من

جبينه، والتي كان يجفّفها بين وقت وآخر بأصابع يده، ثم يقوم بفتح النافذة وهو يسبّ بداية شهر آب ويلعنها. وربّما يجب التكلّم على وقوفنا أمام الحواجز، ولكنّي أفترض أنّني حدّثتك عنه في بداية الحكاية، إذ لا أريد تكرار القصص نفسها. وربّما أستطيع وصف السماء هنا من النافذة الحديد في القبو، والتي تبدو منها السماء مثل قطع ملوّنة من الأزرق الفجّ! وكيف يمكنني أن أشاهد القطط التي تمرّ تحت النوافذ المقابلة المهجورة، أو أن أصف لك شكل الأبنية المقصوفة. لكنّني لن أفعل مثل الكرة الجنّيّة، وهذه اللحظة لا أتحوّل إلى مرايا صغيرة تقفز داخل كرة طائرة.

عقلي يقفز الآن، وأنا أحاول استعادة ما حصل، ولا تنسَ أن تتذكّر أنّ هناك عينين داخل صلعة الفتاة تحدّقان فيّ بشكل دائم، لذلك أفضّل الاستمرار بحكايتي كما هي.

كنت أختبئ تحت السرير في بيتنا وأكتب دائمًا. لكنّ هذا لم يعجبني. وجدت الألوان والخطوط والأشكال أهمّ من المعاني المباشرة. وكان يساعدني على ذلك أنّ السرير كان أحد كواكبي السرّيّة، وهو ما سأحكيه لك لاحقًا.

السرير صديقي. متين وقديم وقوائمه عالية، وقد كان إحدى عطايا الستّ سعاد. قوائم السرير كانت تترك مساحة بينه وبين أرض الغرفة، وكانت أمّي تستخدم هذه المساحة لحشر المتفرّقات من أغراضنا، ثم تضع فوق السرير مفرشًا بخيوط برّاقة، هو من عطاءات الستّ سعاد أيضًا، وكان هذا المفرش المذهّب شفّافًا بعض الشيء، وكانت أمّي تربطني بقيد طويل يتيح لي التحرُّك في

الغرفة، وكنت في غياب أمّي أقوم بنزع أغراضنا وإزاحتها من تحت السرير، وتكويمها في زاوية. أستلقي على بطني، وأضع أقلامي وأوراقي وأكتب ما تحلو لي كتابته، وهل تصدّق إذا قلت لك إنّني لم أتمكّن من الكتابة دون تحويل الغطاء المذهّب إلى ستار يفصلني عن بقيّة الغرفة؟ ثم كنت أغلق على نفسي مثل مربّع أو علبة كرتون، وأكتب قصصي. اعتدت بعد ذلك كتابة كلّ صفات الأشياء من حولي، ورسمتها عبر أشكال مختلفة. كلُّ صفة في اللغة هي لوحة!

في الليل، وبعد أن تأتي أمّي وأخي، ألوّن تلك الرسومات. للأسف لن تراها، أو لست مدركة حقًّا إن كنت ستقدر على رؤيتها. لأنّها لا تزال في صندوقي المحشور بين زاوية الغرفة والسرير، لكنّني أحاول لفت انتباهك إلى موهبتي المبكرة في كتابة القصص، والتي كانت تثني عليها الستّ سعاد. لم يحصل يومًا أن سألتني أيّ شيء بخصوصها، كانت تقرأ القصص ومن ثم تنظر إليّ بذهول، وتقول: أنت عبقريّة يا بنتي! وينتهي الأمر عند هذه الحدود. لا أخفي عليك أنّني عرضت هذه الصور أمام الشابّ الذي كنت سمحت له بجسّ صدري والالتصاق بي مرّة... ربّما مرّتين. المرّة الثانية كانت سريعة، لكنّه التصق بي وجهًا لوجه، وأنا أقوم بإفراغ كيس الخضروات الكبير، وفكّرت في أنّه من المهمّ أن يعرف أنّني لست فتاة عاديّة، فقمت بإلصاق هذه الصور على جدران غرفتنا، وكانت لفتيات عدّة أمام نهر، وفي كلّ صورة حركة إحداهنّ وكيف تتغيّر من رسم إلى آخر. فوق الصورة، كنت أترك مساحة بيضاء لأكتب الحوار الذي يدور بينهنّ، وهذا كنت

رأيته في مجلّات عدّة اشترتها الستّ سعاد، ورغم أنّني بالغت في توزيع الصور ووضعت فوق كلّ صورة جملة: بقلم: ربما سالم المحمودي. وكنت أُشير إليه بطرف عيني لينتبه، إلّا أنّه كان ينظر إلى الصور بشكل حياديّ، ثم يتابع التحديق في صدري الكبير، ولا يتوقّف حتى يقول جملته التي ردّدها إلى أن اختفى فجأة ذات نهار مع اختفاء قلم أحمر الشفاه: يا ألله شو عيونك حلوين، رغم أنّ عينيه تستقرّان في صدري مع جملته تلك. وعندما اختفى، فقدت أملي، ولم أعد لتعليق الرسومات وعرضها، وأخفيتها في ذلك الصندوق الذي آمل بأن أتمكّن من الحصول عليه يومًا، لكن الآن سنترك ألوان الكرة الجنّيّة، وسنتابع من حيث وصلنا في حكايتي.

كنّا في السيّارة، وأخبرتك بأنّ أخي جلس إلى جانبي صامتًا. لا ينظر إليّ، يتحدّث مع السائق للتوجُّه إلى الشوارع الجانبيّة ويدلّه على الأمكنة، ورغم أنّ ألم ذراعي بدأ يحرقني، إلّا أنّني صمتُّ، وكلّ ما فعلته أنّني أمسكت بيد أخي، وهززتها، وأشرت برأسي إلى النافذة. كانت هناك مجموعات من الرجال المدجّجين بالسلاح، يلتفّون حول بعض الشباب. حرّك أخي وجهه، وأمسك برأسي وأداره بالاتّجاه الآخر، وقال: غمّضي عيونك! ما تفتحي عيونك حتى خبّرك، اتّفقنا؟ وكانت عيناه جامدتين. لم أرهما على هذه الحال من قبل. وشعره يبدو مبلولاً بالزيت، رائحته كريهة. اقتربت منه أكثر، وأشرت بعيني إلى الجهة التي يتجمّع فيها العسكريُّون. فنظر بصرامة ووضع إصبعه على شفتيه، محذّرًا إيّاي. كانت عينا السائق تراقبنا، ونظر إليّ باستغراب، وقال: شو

القصّة يا ابني... خير شبها أختك؟ ما فيها شي! وقعت عن الدرج وانجرحت، أجاب أخي بسرعة. تمتم السائق بكلام غير مفهوم، وانعطف نحو زقاق ضيُق، وصوته يزداد نزقًا: رح وصّلك لهون وأنت لازم تكفّي، ما بقدر فوت!

صفق أخي باب السيّارة بقوّة. كانت أصابعه ترتجف، وأمسكني بالقوّة نفسها وجرّني وراءه. كانت ذراعي تؤلمني ولم أتفوّه بحرف، ثم مشينا تحت الشمس لوقت طويل. كنّا نمشي ونمشي وندخل أزقّة غريبة، ثم نجتاز طرقًا ترابيّة تتجمّع فيها بعض الأشجار. كنت أريد البكاء. كتفي تؤلمني بشدّة، ولم ينظر أخي طوال الوقت إليّ. كان يجرّني وهو يحدّق بعينيه في السماء، وعندما قرّر أن نتوقّف تحت الأشجار، قال: اجلسي. فجلست؛ وأخرج من حقيبته كيسًا من البلاستيك مليئًا بالأدوية، وناولني مجموعة أقراص مع زجاجة ماء، وقال: اشربي، فشربت الماء مع أقراص الدواء. كنت أنظر إليه بفضول ولا أحيد نظري عنه، وهو لم ينظر ولو حتى خطفًا إلى وجهي. يدخّن بشراهة طوال الوقت، ويقوم باتّصالات على هاتفه النقّال الذي كان اشتراه منذ حوالى سنة، وكان من النوع الصغير جدًّا.

لم أعرف نوع الأشجار ذات الجذع النحيل، والتي كانت تتهادى أوراقها بكسل فوقنا، حيث جلسنا. لم أرَ مثل هذه الأشجار قبلاً. أظنّ أنّنا مشينا أكثر من ساعتين، عندما تركنا السائق أمام أحد الأزقّة. صرنا بعيدين من بيتنا. لم أعرف أين أنا، ولم يكن باستطاعتي الكلام، والقلم الذي اعتدت حمله مع

دفتري الصغير حين أريد أن أقول شيئًا، لم يكن معي. حقيبتي بقيت مع أمّي... أمّي ماتت كما يقولون، وحقيبتها اختفت.

كان مجموع الأشجار عشرًا، على اليسار من طريق ترابيّ، بعيد من الأبنية، ولكن قريبًا منها كانت هناك مجموعة من المحالّ لتصليح السيّارات، تنظّفها وتشحّمها. أفترض أنّنا في مكان ليس بعيدًا من دمشق، لكنّه صار أبعد من بيتنا بكثير. الهواء الذي أصبح خانقًا بسبب الغبار الذي يعلو في السماء عندما تمرّ سيّارات الشحن الصغيرة، كاد يخنقني. وجهي يحترق من الشمس، ولم يكن أمامنا سوى الانتظار. أخي طلب منّي السكوت، لكنّني ركلته في قدمه ونظرت إليه بغضب، فلم يردّ، وبقي شاردًا، وهو يقلّب في شاشة تلفونه الصغير ويجري اتّصالاته.

بقينا لنصف ساعة ربّما، ثم قال: أنت بنت ذكيّة وفاهمة شو بيصير؟ كلّمني ناظرًا إلى السماء. أنا أحدّق فيه، وأحرّك رأسي من الأعلى إلى الأسفل بانتظام..

تغيّر أخي كثيرًا، لم يعد هو الولد الذي أحببته، وكان يضحك بعينيه قبل أن يقهقه ويتدحرج معي على الحصير البلاستيك الأحمر ذي الزخارف. صارت عيناه غريبتين. الشيء الوحيد الذي أقلقني هو تلك العيون التي بدأت أصادفها في وجوه الناس. من عيني الفتاة الصلعاء في المشفى، إلى عيون الرجال الذين يضربون الجرحى المساجين. إلى عيون المارّة الجامدة في الشوارع، وسائقي السيّارات، صارت عيونهم مختلفة. كنت أودّ لو أرسم

لوحة جديدة لتلك العيون، لكنَّ ذلك لم يكن متاحًا، لأنَّ عيونهم كانت تأخذ أشكالاً مختلفة، وكنت أتخيّلها في رأسي كيف تتحوّل إلى أشكال مدوّرة. لم تكن انسيابيّة في تخيُّلاتي تلك. كانت أحيانًا مربّعة أو مدوّرة بشكل غريب وواسعة. تأخذ مساحة الوجه كاملاً. بياضها ناصع وكلّها ذوات بؤبؤ أسود، كما خُيِّل إليّ أنّني أرى عينيْ أخي وعيون الممرِّضة والفتاة الصلعاء، وكنت أحاول فهم ما يريد قوله من خلال عينيه اللتين توسّعتا بشكل غريب، ولم أفهم ما يقوله. كنت هادئة، ولم أسبّب له المشاكل قبلاً، ليس الآن ولا في أيّ وقت مضى. التقط عودًا مرميًا من على الأرض ورسم خطوطًا متداخلة، واستمرّ يتحدّث. كان هناك صمت غريب وهواء ساخن وظهيرة دبقة. كنّا لوحدنا عند أطراف المدينة، وراءنا كانت مساحات مترامية من الأرض التي تبدو فيها مجموعات صغيرة من الأشجار، وبيوت قليلة. أمامنا كانت البيوت المتراصّة بعضها فوق البعض الآخر، بعيدة بما يكفي لنشاهدها كلوحة صامتة. توقَّف أخي عن الحديث وفكَّ قيد معصمي، ثم أعاد ربطه من جديد، ولكنْ برفق ولطف، ولم يشدّه بقوّة. كان يبكي وهو يشدّ معصمي. دموعه تنهمر على خدَّيه، وتتساقط على يدي التي يقوم بربطها، تستقرّ حبّات دموعه في راحة كفّي. لم أجرؤ على أن أنظر في عينيه. همس: عم توجعك؟ فهززت رأسي ضاحكة بأن لا. أشاح النظر، وكنت أريد منه أن ينظر فقط، ليتأكّد أنّني لست حزينة، وأنّه لا يجب أن يقلق عليّ، لكنّه لم ينظر واستمرّ يشدّ الوثاق برفق، ثم استند بجذعه على الشجرة وأشعل سيجارة، ونظر إلى البعيد حيث البيوت تبدو

مثل علب كبريت متداخلة بعضها فوق بعض، وحيث السماء زرقاء تمامًا وطائرة مروحيّة تمرّ عبرها دون دويّ قذائف. كنّا محظوظين، لأنّنا في منطقة غير مستهدفة من الطائرات، رغم أنّ هذه المنطقة مكشوفة كما قال أخي.

جررت جسدي، والتصقت بأخي. كان جذع الشجرة نحيلاً ولا يكفي ليسندنا معًا. انزاح قليلاً عنّي، وهو ينفث دخان سيجارته. أخي ليس مثل الإخوة الباقين الذين يمكن أن تصادفهم، رغم أنّني لا أعرف الكثير عن الأخوة، ولم أشاهد إخوة وأخوات باستثناء بعض الجيران. أخي كان مختلفًا. أجمل رجل يمكن أن تراه عيناك. أمّي تقول إنّه مثل أبي الذي اختفى من حياتنا، وكنت لا أزل في الرابعة من عمري، ولم نسمع عنه شيئًا مذّاك، وكانت أمّي قد هربت معه في ليلة ربيعيّة جميلة كما قالت، واختفى بعد سنوات، تاركًا إيّاها معي ومع أخي، الذي كان يكبر وهو يشتمه ويسبّه، وكانت أمّي تغضب وتقول، لا أحد يعرف ما حصل، لا بدّ أنّ الموت وحده هو ما جعله يتخلّى عنّا. هذه التفاصيل ليست مهمَّة، لكنّها كافية لتجعلني أحدِّثك عن أخي، أجمل رجل في العالم. كان لون وجهه أبيض! رغم أنَّ بثورًا تركت آثارها على جبهته ووجنتيه، ولحيته طالت، فقد كان هناك خطوط غريبة تحدِّد ملامحه. أستطيع القول إنّها خطوط حادّة، لرسم وجنتيه. خطوط مرسومة بإتقان. أنفه يشكِّل نتوءًا بارزًا ودقيقًا، تتوسّطه انحناءة خفيفة تشبه الرسوم التي كنتُ أجمعها لرجال إغريقيّين، لكنّ أنفه لم يكن عريضًا. كان حادًّا، ويشبه الكبرياء. لون عينيه مثل لون عينيّ. أمّي تقول إنّنا نشبه

بعضنا بعضًا كثيرًا، وأنا لم ألمح هذا الشبه. ذلك اليوم، وتحت الشجيرات، حاولت معرفة وجهه أكثر، لأنّني نسيت وجه أمّي! وحاولت العودة إلى تفاصيل حياتي معها. وجهها اختفى. أذكر شكل معصمها الذي كانت تشدّ الحبل العريض حوله. أذكر اللون الأحمر الذي تركته آثار ذلك الرباط عندما كنّا نعود من المدرسة، وتقوم بغسل وجهها ويديها، ثم تفرك مكان الاحمرار ذاك. وجهها اختفى، وأخي وهو يحدّق في البعيد، بدا كأنّه هي، مع اختلاف بسيط، إذ كان شعره مشعّثًا ومنكوشًا، وكان لا يكفّ عن محاولة التهرُّب من نظراتي. هي لم تكن تفعل ذلك، كانت تراقبني باستمرار. أنا الآن أتقمّص دورها في مراقبة أخي. كانت قطرات العرق تنزّ من جبينه. لم يمسحها. النسمات الحارقة، والتي كانت تحرّك أغصان الشجر الرقيق، تزيد من ثقل القطرات المنسابة على تفاصيل وجهه وعلى ساعديه.

كانت الحرارة خانقة. أمسكتُ بحفنة من التراب، وصرت أذرّ في الهواء، فبدأ أخي يسعل وأمسك بيدي، ثم ضغط عليها. لم أفلت «كمشة» التراب. ضغط أكثر ولم أفلتها. ضغط، ولم أصرخ. ذررت التراب في وجهه. التصق التراب به وتحوّل إلى طين خفيف على أهدابه، وحدّقت فيه. قال: وقّفي! دون أن ينظر في وجهي. كان يبكي. لم أتوقّف، واستمررت أذرّ التراب واستمرّ يسعل، ورأيت دموعه تتدفّق من عينيه وتشكّل خطًّا أبيض على وجنتيه، ولم أتوقّف وأنا أنظر إلى قرص الشمس الملتهب في السماء، حتى سمعنا هديرًا يقترب منّا. لم يكن قويًّا، لأنّه كان لدرّاجة بعجلات ثلاثٍ، نسمّيها «طرطيرة»، لا بدّ أنّك

تعرفها! لأنّني لا أفترض أنّ رجلاً من الفضاء سوف يأتي ويقرأ هذه الأوراق التي بدأتُ أكتبها، كما أنّني أفترض أنّ من سيعثر عليها سيكون رجلاً، إذ نادرًا ما تتجوّل النساء هنا؛ الكتائب العسكريّة لا تسمح لهنّ بالظهور غالبًا، هكذا قالت النساء هنا. ولكنْ، قد تكون أنت نفسك امرأة أو رجلاً، أيضًا ذلك غير مهمّ. عمومًا تُمنع النساء من التجوُّل إلّا للضرورة والحاجة القصوى، لذلك أفترض أنّك ستكون رجلاً، وأنّك ستعثر على هذه الأوراق، وإلى جانبها قلمي الأزرق الوحيد الذي ستنتهي حكايتي معه، وهي لن تنتهي بالتأكيد قبل أن تعرف ما أريد لك أن تعرفه.

لنعد إلى حكايتنا حتى لا نتحوّل أنا وأنت إلى شظايا مرايا في الكرة الجنّيّة، وتختلط علينا الوقائع. ما أردت قوله إنّني، وفي تلك اللحظة، وبينما كنت أذرّ التراب في الهواء وأخي يسعل، والشمس تخترق الأغصان الجافّة والأوراق الخضر المائلة إلى الصفرة، توقّفت أمامنا «طرطيرة» وسحبني أخي، ولحظت ذلك التحديق في عينيه، والذي لم أره من قبل، والذي أظنّ أنّه جعله مخيفًا. ارتجفتُ وأدرت رأسي إلى الجهة الأخرى، لأنّ عينيه كانتا لا ترمشان، كأنّ الدائرة داخلهما كانت من حديد.

نزل رجلان من على الدرّاجة ثلاثيّة العجلات، أحدهما أعطى أخي كيسًا من البلاستيك، أفرغه مباشرة. كان فيه ثياب. الثياب نفسها التي بقيت معي، والتي استعملتها في حركتي عندما دخلنا ذلك المكان الملعون، وهي نفسها التي رميت بعضها في

هذا القبو، حيث أكوام الورق والنافذة العالية التي تقع على مستوى النظر، والتي من خلالها أرى قوائم القطط والكلاب، وتفاصيل الحفر التي أحدثتها القذائف، وركام الأبنية الذي كان يمنعني من رؤية السماء، هناك قطعة صغيرة منها. قطعة صغيرة من السماء بحجم طريق ضيِّق وطويل. سأكتب لك عن هذا الطريق السماويّ لاحقًا، عندما أفرغ من كتابة قصّة أخي في القبو، والذي لم أكن أعرف أنّني سأبقى فيه عندما كنت أنتظر معه تحت بضع أشجار والشمس حارقة.

وصل الرجال الثلاثة الذين سيعبرون بنا متاهات عدّة، حتى يحلّ الليل. حينذاك، وأنا أتناول من أخي الثياب السود التي كان يجب ارتداؤها، لأغطّي وجهي وثيابي الملوّنة، إذ يبدو هذا هنا إجباريًّا، ويبدو أنّ هذه الثياب التي سترتديها النساء هنا. كنت أشعر بانقباض من لونها الأسود، ولم أفهم الفرق بينها وبين حجابي الملوّن. يضع كفّه مرّة أخرى، ثم أعضّ إصبعه، وكنت أضحك، وكان متجهّمًا، ورأسه يتمايل، أمّا أنا فقد شعرت بأنّ أمعائي ستخرج من فمي، ونحن نترجرج، وأخي يغمض عينيّ بكفّه، وأنا أضحك، لكنّني لم ألمح عينيه. أصابعه القاسية تُحيط بوجهي، وشعرت بأنّني أختنق. «الطرطيرة» توقّفت، ونزلنا منها. وظهر ثلاثة أشباح ملثّمين رغم الحرّ.

الشبح الأوّل: بدنا نمشي حوالى الساعة.

الشبح الثاني: ولا حرف ولا كلمة... قدّامنا دبّابات، والجهة التانية كلّها حواجز، ما بدّي إسمع نَفَس.

الشبح الثالث: الحقوني، رح نمشي على طول خطّ الشجر.

ثم توقّفوا عن الكلام. كانوا ثلاثة رجال، لم أتبيّن ملامحهم، لكنّني أحببت ما نفعله. كانوا يشبهون السحرة والأشباح في القصص. يرتدون عباءات بيضًا، وعلى رؤوسهم عمامات، ويتحدَّثون بصوت خفيض، ويختفون في الليل، ونحن نلحق بهم. كان أخي لا يجرّني وراءه حينذاك، بل يمسك بيدي، وقد همس في أذني تلك الجملة المرعبة قبل أن نلحق بالرجال الأشباح: حركة وحدة وبتموتي، ما تصرخي، منموت كلّنا.

حلّقت مروحيّة. شعرت بضرورة تحريك عضلة لساني. أعرف صوتها. وتوقّفنا. نزلنا تحت كومة من الأشجار، أنا وأخي والرجال الأشباح، ولم أفهم ما يحصل إلّا لاحقًا.

في الصباح، عرفت أنّنا كنّا نجتاز طريقًا يفصل بين رجال يملكون الكثير من السلاح ويتقاتلون، وكنّا مع الأشباح نختبئ تحت الأشجار، ولم تصدر عنّا أيّ حركة، لكنّني بدأت أحاول تحريك أصابعي في كفّ أخي المشدودة، والتي كانت تشبه ذراعًا حديديّة. شدّني إليه، وأخفاني في صدره. كنت أحاول تأمّل شكل الأشباح الثلاثة، وكان يقوم بوضع أصابع كفّه الأخرى على وجهي، عندما يشعر بتململي. بقينا لساعة مكوّمين، ثم قرّر الرجال الأشباح أن يمشوا، فلحقنا بهم صامتين، فشدّ أصابعه حول كفّي المربوطة بيده. تألّمت، وخرج شيء ما من فمي. لم أعرف ما هو. قال أخي لاحقًا إنّني صرخت، ولكنّني لم أعرف ما خرج، لأنّني لو تركت شفتيّ مغلقتين، كنت سأموت. حين

خرج ذلك الشيء وسمعته من عضلة لساني، انبطح الجميع على الأرض، وأنزلني أخي بحركة سريعة منه، وسقط وجهي في التراب.

ربَّما كان الفجر على وشك الانبلاج. شعرت بذلك من التراب، من الروائح المحيطة بي، وأبقيت فمي في التراب. تجمَّدت. توقّف قلبي عن الخفقان، ولم أمت. وكان هذا غريبًا بالنسبة إليّ. العالم كلُّه تحوّل إلى طبل في أذنيَّ، عندما عدت وسمعت ضربات قلبي، ثم نزع أخي قميصه، كان لونه فاتحًا، تذكّرت أنّه يرتدي قميصًا مخطَّطًا اشترته أمّي من بالة «الحريقة»، وهو المفضَّل لديه، وتذكّرت أنّه جاء بأناقة مبالغٍ بها ليأخذني من المشفى، وهو أمر لم أعتده، ولم أعرف السببَ الذي دعاه إلى ارتداء القميص المعدّ لمناسبات خاصّة، مع أنّ رائحته كانت كريهة، لكنّ قميصه صار كمّامة وضعها على فمي. جعل من أكمام القميص ربطة شديدة شدّ بها فكّي، بعد أن انتزع رأسي من التراب، وهو يربط الكمّامة ويحكم ربطها بشدّة، لمحت شيئًا، فوق خدّيه يلمع. أعاد لفّ القميص حول وجهي الذي لم يبقَ منه سوى العينين مع الحجاب الجديد الذي أحكم وضعه. نظرت في عينيه، فأشاح وجهه. أحكم ربط القميص حول فكّيَّ، ثم جعلني أقف. وقف الرجال الثلاثة. حينذاك، سمعت تنهّدًا خفيفًا، واقتربت منه، وأردت إسماعه أسفي لأنّني لم ألتزم بما قال، لكنّه لم ينظر إليّ. وكان فمي مكمّمًا بأكمام القميص. مشينا حوالى الساعة بين طرق عدّة، وعندما بدأت السماء تبدو مثل قماشة سوداء، تتخلّلها ثقوب فضّة، التصقت بأخي أكثر، وقال الشبح

الثاني: صرنا بأمان.

حينذاك، نظر أخي إليّ للمرّة الأولى، كانت نظرة حياديّة، تشبه نظرة عيون القطط الميّتة في حارتنا؛ أمّا أنا، وتحت السماء المزيّنة بثقوب فضّة، لمحت ذلك الخطّ الصغير الناعم، والذي حفرته دموعه في خدّيه.

كنّا قد دخلنا الحصار.

مرّ شهر مُذ بدأ الصيف اللعين، ربّما أكثر!

كنّا قد دخلنا الحصار. ما يسمّونه حصارًا.

كنت أفتقد ألواني وسريري، وأحاول فهم المكان الجديد الذي نعيش فيه. كنت وأخي في غرفة. لم تكن صغيرة. كانت ضمن بيت تعيش فيه عائلات عدّة، وفي مكان اسمه «زملكا»، قالوا إنّها تقع شرق دمشق، ورغم أنّني أعيش غير بعيد من هنا، إلّا أنّني لم أسمع قبلاً بهذا الاسم، يبدو أنّني لا أعرف شيئًا من حقيقة العالم... ولا حتى ظلال هذا العالم الذي اعتقدت أنّ الكتب أخبرتني عنه بكلّ شيء!

عائلتان اثنتان، كانتا تعاملانني بلطف، تأتيان بالطعام، وأشاركهما تنظيف البيت، وكانت نظرات أفرادهما طيّبة ولامبالية، لكنّهما كانتا تراقبانني بخوف عندما تمرّ الطائرات فوق رؤوسنا

وتلقي بالقذائف، وأبقى واقفة في مكاني، ربَّما لهذا اعتقدتا أنّني مجنونة. كنت أقف تحت الطائرة وألحق بها، هذا ما قالته لي أمّ سعيد. الغريب أنّني كنت أجد أفرادهما بُلهاء وهم يزحفون مثل أرتال من النمل المستنفر تحت هدير الطائرات، لِمَ يفعلون ذلك؟ كانوا سيموتون لو أنّ الطائرة ستلقي بالقذائف في منطقتهم. المصادفة فقط ستنقذهم! كيف يمكن الهروب من الموت إلّا بالوقوف أمامه؟ أو على الأقلّ النظر إليه؟ هم مجانين حتمًا! وكي أصف لك ما عشناه في الأيّام العشرة التالية قبل أن تمطر سماء الصيف بتلك الفقّاعات ذات الرائحة الكريهة، فأنا أحتاج وقتًا طويلاً للشرح، لا أظنّ أنّ لديّ هذا الوقت، فبحسب الخيوط التي أنسلها من حجابي الأسود وأحتفظ بها معلّقة في الحبل، أكون قد غادرت الفتاة الصلعاء منذ عشرين يومًا، وربّما أكثر! ما يعني أنّني دخلت هذا المكان، منذ بداية شهر آب. عليك أن تعرف أنّني دقيقة جدًّا، وأفهم تمامًا بقصّة الأعداد. ولو كنت أجيد الكلام لكنت عالمة رِياضيّات! أجل، أمّي تقول إنّني ذكيّة، لكنّني رفضت أن أنطق، وحقيقةً أشعر بالندم لأنّني فعلت هذا، لكنّ الوقت قد مضى على الشعور بالندم، وتدريب عضلة لساني على النطق.

كنت على قناعة بأنّ هناك أشياء تحدث، وغير مفهومة، وليس بالإمكان تبريرها. هذا المكان قد يكون شبيهًا بالعالم الذي دخلته «آليس»، ووجدت نفسها في بلاد العجائب، كرّرتُ لك هذا! الحقيقة، هذا العالم هنا ليس ملوّنًا تمامًا، كما في بلاد العجائب. القطط تختفي، ولا تعاود الظهور. القطط هنا لا

تتكلّم، إنّها تموء فقط، وتموت، وهي تتكاثر بسرعة عجيبة، وألوانها رماديّة باهتة. هناك قطّة بيضاء، تدور حول البيت. بياضها تحوّل إلى رماديّ وسخ! تموء في الظهيرة وهي تتلوّى تحت الشجرة في صحن الدار، أعني ساحة البيت. أمّي كانت تقول صحن، وكنتُ معجبة بهذه الكلمة. أتخيّل نفسي جالسة في صحن، وهذا كان يعجبني، وأنّني صغيرة جدًّا مثل ملعقة مستلقية على حوافّ صحن.

وصلنا إلى بيت «زملكا». تقول أمّ سعيد إنّنا بين "زملكا" وبلدة قريبة أخرى في الغوطة. عرفت فيما بعد أنّ هذا البيت أنقذنا من الموت. بيتنا كان بين «الدويلعة» و«مخيّم جرمانا». لم أعرف القِسم الآخر من الغوطة. ذهبت مرّة مع أمّي إلى "عربين"، وكان هذا منذ وقت طويل. يبدو أنّ العالم كبير جدًّا جدًّا. ربّما أنت لا تفهم كلامي، لأنّني أكتب بلا تحفُّظ وبلا تسلسل. ستعذرني؟ لم أكن كاتبة في يوم من الأيّام، ورغم أنّني أحتفظ بعشرات القصص التي قمت بكتابتها ورسمها وتلوينها في صندوقي، سبق أن أخبرتك بذلك. هل تعرف صندوقي؟ بطني مصاب بالتشنُّج منذ يومين. صندوقي وسريري قادران على جعل بطني يُصاب بتشنّجات. وحتى أشرح لك ما تعنيه التشنُّجات، أحتاج أن أرسمها لك كما الرسوم الجميلة في كتاب «الأمير الصغير»، لكنّ هذا غير ممكن. لا أعرف أن أرسم إلّا بقلم رصاص، وهنا لا توجد أقلام رصاص، سأرسم بعض الأشياء بالقلم الأزرق هذا! لكنّ التشنُّجات التي تذكّرني بصندوقي وسريري، أو كتبي وصندوقي التي تأتي بالتشنُّجات، والتي تشبه

غابة من خطوط منكسرة ذات زوايا قائمة تتشابك في عقد عدّة. تخيّل أنّ بطني خطّ مستقيم ومكسور عبر نقاط عدّة من هذا الخطّ، هكذا... هكذا... هكذا... مكسور بزاوية حادّة. الخطوط تجعل العيش صعبًا.

في بيت «زملكا»، كان زجاج النوافذ من البلاستيك الشفّاف، لأنّ القذائف وما يسقط من السماء تدمّر كلّ شيء. استبدل الناس الزجاج بالبلاستيك الشفّاف، وهذا غير مهمّ الآن. الجوّ حارّ، ويجب أن نفتح النوافذ. باب الغرفة، ورغم الحرارة الخانقة، يجب أن يبقى مغلقًا. لأنّ البيوت الأخرى فيها نساء، يقول رجال هذا البيت عنهم «حريم»، ومع أنّني لم أعرف من هو صاحب البيت، فقد كنّا من النساء والأطفال. الرجال يأتون ويروحون، يحملون الأسلحة، ومنهم من يحمل كاميرا وسلاحًا ويعمل في الإسعاف وفي كلّ شيء. أحد هؤلاء هو حسن، الشابّ الذي سأحكي لك حكايته لاحقًا. حكاية عن الحبّ. هل تعرف ما هو الحبّ؟ الحبّ أن يتشنّج بطني. يبدأ من اليسار في الصدر، حيث هناك سيخ نار، مثل صنّارة أمّي للصوف، سيخ نار يخترق قلبك ويستقرّ أسفل منطقة البطن، ويصيبك بالذهول، والشلل. الحبّ هو مجموعة كواكب سيّارة صغيرة ترقص بأذرع طويلة ونحيلة، ثم تتشابك في عقدة من الضوء الشديد. الحبّ أن تتحوّل عضلات جسدي كلّه إلى خرساء مثل لساني. لكنّني حينذاك فقط كنت أسترق النظر إليه من ثقب الباب، عندما يجلس الرجال في صحن الدار، وتكون الغرفة مغلقة، وأراقبهم. كان أخي يجلس معهم. يغيب ثم يعود، وعبر الثقب الصغير، حيث أركّز نظري على

وجهه، إذ غالبًا ما يجلس قبالة باب الغرفة. لم أعرف ما إذا كان الأمر مصادفة أم إشارة منه. هو نفسه بطلي الذي ستعرف حكايته لاحقًا.

هل ضعت قليلاً في الحكاية؟

في الغرفة التي أراقب منها الرجال عبر ثقب الباب، هناك حصير بلاستيك وبضع وسائد عريضة، وهي مشمَّسة ونظيفة. هناك لحافان سميكان تحوّلا إلى فراشين لنا. نفرشهما أنا وأخي وننام عليهما، إضافة إلى إبريق ماء ورأس غاز صغير، وثلاث كؤوس صغيرة للشاي، وركوة قهوة فقط. على الحائط كانت هناك مسامير. عددها خمسة. مسامير عريضة وطويلة لتعليق الثياب، ولون الغرفة كان أخضر فاتحًا. الدهان مهترئ. أمّا يدي التي اعتادت أمّي أن تقيّدها بالسرير، فقد ربُطت بنافذة الغرفة. وكان للنافذة مقبض حديد على شكل زهرة البابونج. أخي ورث مَهمَة أمّي في عمليّة الفكّ والربط. لكنّه لم يقيّدني إلى يده. صار يحمل على ظهره سلاحًا ثقيلاً، ولم يسمح بخروجي من الغرفة. كنت أدور في الغرفة بما يكفي لأصل إلى الباب. كلّ ساعة كانت تأتي أمّ سعيد، المرأة المسنّة التي تشبه رسوم الجدّات في أفلام الكرتون، لتسألني ما إذا كنت بحاجة للذهاب إلى الحمّام. وحقيقة، كنت دائمًا أقول لها إنّني بحاجة إلى ذلك، فتوقّفت عن المجيء كلّ ساعة. صارت تأتي كلّ ساعتين، وكنت أشير لها أنّني أريد الذهاب إلى الحمّام، فتصرخ بامرأة أخرى لتساعدها على التحكّم بي. كنت أشعر بسعادة عندما أجتاز تلك الفسحة،

وأدخل الحمّام. أحيانًا كنت أتبوّل، وأحيانًا أبقى أنظر من نافذة الحمّام، حتى تصرخ بي. اكتشفت أمّ سعيد لعبتي من الأيّام الأولى. طلبت منّي أن أدقّ الباب في حال احتجت الخروج إلى الحمّام، لأنّها مريضة والقذائف لا تتوقّف، ومن الخطر أن أبقى أتحرّك هكذا بين غرفتي والحمّام. لكنّني استغربت أيضًا، فالقذائف ستنزل فوق رؤوسنا سواء كنّا داخل الغرف أم خارجها! وعندما قالت جملتها تلك ونظرتُ إليها بغرابة، ضحكت وقالت: يا بنتي بدّك تموتي والناس تشوفك هيك، فوتي الله يستر عليكِ، وارتاحي. ثم صارت تأتي وتبقى معي لفترات أطول.

كانت وحيدة. مات زوجها في المعتقل، وأولادها انضمُّوا إلى الكتائب العسكريّة. قالت لي إنَّ أكبرهم يريد الانتقام لوالده الذي مات في سجن الرئيس. الناس هنا كانوا طيّبين، وأخي طيّب أيضًا، لكنّه يهاجم الرئيس، وأنا كنت فقط أريد العودة إلى سريري وإلى أمّي.

أخي كان صامتًا. لم أرَ ضحكته منذ افترقنا عن الفتاة الصلعاء.

أحاول أن أشرح لك عن المكان الجديد الذي عشت فيه لعشرة أيّام، أو ربَّما أكثر. وهو المكان الثاني الغريب بعد مشفى الفتاة الصلعاء، وسيكون هناك مكان غريب ثالث هو المكان الذي أكتب لك منه، لكنْ في تلك الأوقات كنت مع أمّ سعيد، وهي تعلّمني كيف أتصرّف عندما تنزل علينا القذائف والبراميل، وبعد الأيّام الأربعة الأولى تركت العائلة التي تقيم معها، وبقيت معي

في الغرفة تهتمّ بي. قبل أن تسقط القذيفة في صحن الدار، عاد أخي للبقاء معي الأيّام الأربعة الأخيرة. قبل أن أترك هذا المكان، لا أقدر على التركيز. ونسيت حقيقة وجه أمّ سعيد. هي لا تشبه أمّي. كانت عجوزًا مسنّة، لا تتحدّث غالبًا. تضحك باستمرار وتسخر من نفسها وممّا يحيط بها. وتغنّي بصوت خافت للنساء والأطفال حتى لا يسمعها الرجال، وتهمس بنكات للنساء وتغمز لهنّ، وهنّ يضحكن. صباحًا، تقوم بالعناية بي، تأتي بوعاء مملوء ماءً، تجعلني أغسل وجهي، وتذهب بي إلى الحمّام.

غيّرتُ ملابسي مرّات عدّة وغسلتها. كنت في غاية الحنق. لقد اعتدت فعل هذا بنفسي. لا بدّ أنّ أخي أخبرهم بأنّني لا أملك القدرة على العناية بنفسي. كانت أمّ سعيد تغنّي بحزن. تجاعيد كثيرة حول وجهها. لا تخلع حجابها حتى أثناء نومها. قالت لي، إنّه ربّما نموت في أيّ لحظة، وعلينا الاحتفاظ بحشمتنا. كانت تلفظها «السترة»، وتردّد وهي تنظر إليّ بحزن: الله يستر عليك. وعندما كانت تقول لي الله يستر عليك، كنت أتخيّل نفسي وعاء زجاجيًا بعنق طويل ورفيع مثل سيقان لقلق، وكانت تعلو هذا العنق سدّادة. هكذا كنت أتخيّل السترة، وهذه السدّادة هي الكلمة السحريّة التي كانت أمّ سعيد تردّدها بشكل مستمرّ، وهي تراقب السماء من النافذة، وتقوم بحياكة الصوف. كانت تعدّ سترة بلون أحمر. قالت إنّ الصوف الذي اشترته إحدى السيّدات، وقدّمته إليها، سوف تقوم بتحويله إلى سترة لابنها. سيكون هذا جيّدًا في حصارنا، قالت. لم تسألني عن عائلتي بعكس نساء العائلات الأخريات اللواتي كنّ ينظرن إليّ كأنّني مخلوق غريب،

وحاولن سؤالي بعض الأسئلة، وعندما لم أجب وبقيت أحدّق فيهنّ، صمتن وتراجعن، ثم صرن يراقبن حركاتي، وأنا أتجاوز صحن الدار كي أتبوّل. كنت بدأت أشعر بحرقة في معدتي، ولم أتناول الطعام الذي لم يكن وفيرًا، لكنّ أمّ سعيد صارت تعدّ سندويشات الزيت والزعتر وتقطّع حبّات البندورة في الصباح. في المساء تقوم بقلي البيض مع البصل والبندورة، سأعود معك إلى ما جعلني راضية مع أمّ سعيد، وهو ما حاولت إخبارك به منذ بداية الحديث عنها، لكنّني أضيّع الأفكار من عقلي، وأشطّ في الكلام. . . ولعلمك، فأنا أحبّ كثيرًا كلمةَ الشطط.

أهمّيّة ما سأحكيه لك عن الأيّام التي قضيتها مع أمّ سعيد، أنّ أطفال العائلات الأخرى كانوا يجتمعون حولها، كانوا حوالى سبعة أولاد، وهناك آخرون يراقبونني باستغراب، ويقلّدون مشيتي بسخرية، وهذا لم يكن يزعجني. الأطفال السبعة، كان أكبرهم في العاشرة وأصغرهم في السادسة، هكذا فهمت من حديثهم. يبدون متشابهين، وقد كانوا لطفاء، ويأتون بدفاترهم وأقلامهم الملوّنة، ثلاثة دفاتر وعلبتي أقلام ملوّنة وأربعة أقلام رصاص.

كانوا يتناوبون على الأقلام في ما بينهم. وقد رسمت لهم الكثير من الأشياء التي لن تخطر على بالك! مثلاً، أعدت رسم «الأمير الصغير» كما صوّرته حكاية «سانت إكزوبيري»، ولوّنت وشاحه بلون أصفر، وهذا أفرحهم، وأدهش سكّان البيت الذين كانوا ينظرون إلى رسوماتي باستغراب! ربّما نسيت إخبارك بأنّني معجبة جدًّا بالوشاح الذي يضعه «الأمير الصغير» في القصّة.

لأنّه كان يبدو مستقيمًا وطائرًا في الهواء، ولأنَّ لونه من لون شعر «الأمير» الذهبيّ، وكان الأطفال يلوّنون الرسوم بمهارة، وبعد أن جعلتهم يرسمون «الأمير»، ولم يكونوا بارعين، أضفت إليه الكرة، أعني الكوكب الصغير الذي يعيش عليه «الأمير». قال لي أحدهم هذه المرّة الأولى التي أرى فيها الأرض صغيرة إلى هذا الحدّ، فكتبت له على قصاصة ورق: هذه ليست الأرض، وهي كوكب آخر، فضحك وفرح وقفز، وقال: هذا أفضل بكثير. وأثناء ذلك، كانت تسقط القذائف، فنتحوّل كلُّنا إلى كرات مدوَّرة حول بعضنا بعضًا، ونترك الرسوم والألوان. في المرّة الأولى، عندما فعلوا ذلك. ضمّتهم أمّ سعيد إلى حضنها. بقيت بعيدة أراقبهم. فكما تعلم، كنت على يقين أنَّ تحوُّلي إلى كرة تختبئ قرب أعمدة الغرفة لن يفيد شيئًا. في المرّة التي تلتها وكانت في اليوم الثاني، قمت بتدوير نفسي مثلهم، وتكوّرنا قرب العمود الداخليّ للغرفة بعيدًا من النافذة. كانت لعبة حلوة، لأنّنا، ما إن يحلّ الصمت ويذهب دويّ القذيفة وهدير الطائرة التي تحلّق فوقنا، كنّا نصرخ من الفرح، وكنت أصرخ معهم، وأعرف أنَّ هناك شيئًا ما يخرج من لساني. كانت أمّ سعيد تبكي. لا تصدر أيّ صوت وهي تراقبنا، وهل تصدِّق إن أخبرتك، أنّها كانت من أسعد الأيّام التي عشتها، إذ فجأة اتَّضح لي أنّني أريد في الحياة أمرًا واحدًا، وهو أن أعلِّم الأطفال الرسم. ولوهلة اكتشفت أنّني أرسم ببراعة، وأنقل صور الحياة كما هي حقيقة، بخاصّة رسوم «الأمير الصغير»،

وحيوانات كليلة ودمنة؛ وفكّرت مجدّدًا في أنّ قراري مُذ كنت في الرابعة من عمري عدم تحريك عضلة لساني كان قرارًا خاطئًا، إذ لو أنّني أستطيع فعل ذلك لرويت القصص لهم. هل تظنّ أنّ الأوان قد فات؟!

ما إن يطلع الفجر حتى يبدأ الصبية بطرق الأبواب، يحملون دفاترهم وأقلامهم وألوانهم، أمّهاتهم يراقبن ما نفعل ويتابعن أشغالهنّ بدأب. كان أحبّهم إلى قلبي، عامر، وهو ولد في الثامنة، ضئيل الحجم، لا يضحك، وينبطح على الأرض كلّ بضع دقائق، يتظاهر بالموت. كان يقضي وقته وهو يصل بين النقط التي أشكّلها لهم ليتمرّنوا على الرسم. عامر الذي لم أسمع صوته إلّا نادرًا في تلك الأيّام، رسم شخصيّات «آليس في بلاد العجائب»، وحيوانات كليلة ودمنة، لكنّه رفض رسم «الأمير الصغير». قالت أمّ سعيد إنّه يتيم وعمّه يرعاه، ذهب عمّه للقتال مع الرجال وبقي مع أولاد عمّه وأمّهم. قالت زوجة عمّه، إنّ أمّه معتقلة. كنت أفكّر في الفارق بين الاختفاء والموت؟ أمّه معتقلة في سجون الرئيس، لأنّ زوجها من الجيش الحرّ، أخوه الكبير معتقل لدى كتائب من الجيش الحرّ. لم أفهم هذه «الدوّيخة» التي كانوا يروونها عن عامر واختفاء عائلته، وعن كلّ تلك الجيوش التي ظهرت أسماؤها فجأة!

المهمّ في الأمر أنّه في الأيّام الخمسة، تمّ قصفنا أربع مرّات. وآخر مرّة، كان القصف على البيت المجاور لنا. وانتهى درس الرسم باكرًا، وخرج الأطفال في حال ذهول، ما عدا

عامر الذي اقترب منّي وقال: صحيح أنت مجنونة؟ فضحكت ونفيت برأسي، فأجاب: هيك عم قول لحالي، لأنّه ما في مجنون بيعرف يرسم هيك!

في تلك الليلة، والقصف مستمرّ من حولنا، لكنّه بدأ يبعد عنّا، دندنت، لن تصدّق هذا، ولكنّني أستطيع غناء القرآن. كنت قد حفظت القرآن. حفظته غيبًا من أوّله إلى آخره. كانت جوامع كثيرة حولنا، قال لي أخي، إنّها بنيت في السنوات العشرين الأخيرة، وكنت أذهب معه ومع أطفال الحيّ إلى معهد مجاور لأحد الجوامع وتابع له، كان هناك الكثير من الأطفال.

البنات كنّ صغيرات، وأنا لم يسمحوا لي بالدخول دون وضع غطاء على رأسي، وكان أخي يربطني معه. يمدّ الحبل بما يسمح بجلوسه خارج غرفة الفتيات. لم يكن مسموحًا للصبيان بالجلوس معنا. عندما بلغت التاسعة، رفضوا استقبالي، وقالوا إنّني صرت بالغة، ولم أفهم ما كانوا يعنون بهذا، حتى بدأ الدم يخرج من بين فخذيَّ بعد سنة. لكنّني هناك، تعلّمت كتابة القرآن وقراءته. كان المعهد صغيرًا، ومن يقوم على تدريبنا امرأة. البنات كانت لهنّ غرف أخرى، أعني الطالبات اللواتي كبرن، وأمّي رفضت إرسالي وحدي، لكنّ هذا لم يكن مهمًّا، لأنّني كنت أتدرّب على غناء القرآن وترتيله في البيت. كانت الفتيات يبكين وهنّ يرتّلن القرآن في المعهد، وكنت أبكي معهنّ، ولم أعرف السبب. أعترف لك بأنّني كنت خائفة جدًّا، خصوصًا عندما عرفت أنّ العقاب الذي سينتظرنا بعد الموت، هو الجحيم

وسلخ اللحم، وأشياء أخرى، لا بدّ أنك تعرفها؟ كنت أستيقظ في الليل مذعورة وصورة نيران تأكلني على شكل عملاق ضخم. لا أنام الليل أبدًا، ولأيّام متتالية حصل هذا. أحرقتْ أمّي كلّ الرسوم التي صوّرتُ فيها الجحيم، كنت أرسم ألوانًا لحرائق من ألوان الأحمر والأخضر والأزرق. وضعتها على طبقات، وفي كلّ طبقة لون مختلف، وداخل كلّ طبقة رؤوس الناس وهي تحترق، وكنت أكتب داخلها الآيات القرآنيّة التي تتحدّث عن جهنّم. عن الجحيم. أحرقتها أمّي كلّها، حتى لوحة الشعرة التي يجب أن نمشي عليها! كنت أرسم لوحات الجحيم وأخبّئها. لكنّها كانت تجد طريقها إليها. تحرقها، وتشعل البخور لساعات بعد ذلك. كسرتُ أقلامي الملوّنة، ثم أحرقتُ أصابعي بأعواد الثقاب، قالت إنّ ما فعلته حرام وخطيئة، فتوقّفت عن رسم جهنّم.

سورة يوسف كانت المفضّلة عندي. كنت أغنّي القرآن، ونسيت الآيات التي تتحدّث عن الجحيم. في إحدى المرّات، رتّلتُ للشابّ الذي سمحت له بجسّ صدري، وقد كان مذهولاً. بعد ذلك، مرّ وقت طويل ونسيت فيه غناء القرآن وترتيله، حتى ذلك اليوم الذي دُهشت فيه أمّ سعيد ومن حولي في «زملكا».

سوف تفهم أن لا وقت لديّ لأشرح لك عن النسيان. بإمكانك لاحقًا أن ترمي ما تريده من هذه الأوراق! ما يهمّني هو أمّ سعيد التي أرادت أن تفهم كيف أرتّل القرآن! لقد كان هذا أمرًا صعب الشرح لها. فعضلة لساني متوقّفة، وأنا مثلها لا أفهم

الكثير ممّا يُحيط بي. مع ذلك، تحوّل الأمر إلى فأل نحس علينا، لأنّ أمّ سعيد اختفت صباح اليوم التالي الذي رتّلت فيه. أمّي كانت تعرف أنني لا أستطيع التوقّف عندما أرتّل القرآن وأغنّيه، وكانت تطلب منّي أحيانًا أن أرتّل بعض الآيات، ولم أكن أستجيب لطلبها، لكنّها عندما كانت تسمعني فجأة أقرأ، كانت تبكي، وتدعو الله ليشفيني. ولم تكن تشعر بالخجل من جيراننا. نسيت إخبارك بأنّ الجيران كانوا يتحلّقون حول غرفتنا وينصتون إليّ، وأنّهم منذ اليوم الذي سمعوني أغنّي القرآن وأرتّله، كانوا يقولون إنّ صوتي يُبكي الحجر. قالوا ذلك، وصاروا يتصرّفون مع أمّي بطريقة أفضل.

في ذلك المساء، وبعد أن غادر الأولاد وسألني عامر عن جنوني، بدأت القراءة والترتيل. والنسوة اجتمعن في دائرة يتهامسن، وكنّ مستغرقات في حديثهنّ وهنّ يقمن بحياكة الصوف، واحدة منهنّ وكانت نحيلة، تقوم بتقشير حبّات الفول، وكنّ يراقبن حركتي مع الأطفال. الغريب أنّ الناس يظهرون فجأة هنا، يظهرون كجماعات محشورة في أماكن ضيّقة مثلما كنّا في ذلك البيت، ثم في أماكن أخرى يختفون ولا يظهر أحد منهم، كما يحصل هنا في القبو!

عندما بدأ القصف وانتفضت أمّ سعيد واقفة، وأسرعت النساء من الغرف الأخرى، بدونا مثل مجموعة كبيرة تلتفّ حول نفسها، وكان هناك اثنان من الرجال، وكنت أفتح باب غرفتي وأمّ سعيد تجلس حافية القدمين، وتمدّ رجليها على عتبة الدار وتضع منشفة

عليها ماء، وأنا كنت واقفة جانب النافذة وأحاول تحريك يدي المقيَّدة إلى النافذة، لأنّني شعرت بأنّ ماء يتدفَّق من تحت الربطة التي تؤلمني. صحيح أنّ القصف لم يتوقّف، إلّا أنَّ السماء كانت صافية، وهناك نور يشعّ. ربَّما من القمر، رغم أنّني لا أراه، وكنّا في أوّل الشهر، ما يعني أنّه لم يكتمل. هناك حريق بعيد يُنير السماء. واقتربنا أكثر من بعضنا بعضًا، وتكوّرنا حتى صرنا نسمع أنفاسنا.

يمكنكم تحميل المزيد من الكتب الرائعة والحصرية
بحجم خفيف جدا على مكتبة جديد بدف
https://jadidpdf.com

لم أرَ وجهي منذ زمن طويل ولا أعرف كيف يبدو، وافتقدت مرآتي في البيت. وجوه الأولاد من حولي تجعلني أرتجف. الغبار يُحيط بنا من كلّ جهة، والماء قليل. ثيابهم متّسخة. أراقب أصابعهم على دفاترهم، حين تترك أثارًا على الورق الأبيض. وهي تشبه خطوطًا وبقعًا رماديّة. أصابعهم، ورغم أنّها نحيلة، وبالكاد تلامس الورق، إلّا أنّ الخطوط التي يرسمونها كانت متقنة وانسيابيّة، وكانوا يبقون لدقائق حتى يستطيعوا الانتقال من رسم خطّ إلى خطّ آخر، فالوشاح الذهبيّ الخاصّ بـ «الأمير الصغير»، جعلوه مسطرة في نهايتها مثلّث. وأذيال الفيلة في كتاب كليلة ودمنة، كانت عبارة عن نصف قطر دائرة. جعلتهم يرسمون فيلاً مشتركًا بين قصّة «الأمير الصغير» وحكاية «القبّرة والفيل»، وهي أولى حكايات كليلة ودمنة، وكان هذا صعبًا، لأنّ علينا تخيُّل الحكايتين في رسمين مختلفين، فأفيال «الأمير الصغير» غير أفيال

«بيدبا» الفيلسوف. عامر وجد حلًّا معقولاً، فرسم كرتين متداخلتين، وقال إنّه تعلّم هذا في المدرسة قبل أن تتهدّم مدرسته بالقصف، وقام بتعليم الباقين كيف يرسمون فيلاً، وهو أمر أصابني باستغراب شديد، لأنّ عامر ذا العينين السوداوين والجبهة الضيّقة والمقطّبة، كان يبدو معلّمًا بالفطرة. افتقدته طويلاً بعد مغادرتنا. كان يتصرّف مثل الرجال الذين يعودون بين وقت وآخر محمّلين بالأوساخ والدماء وعلى أكتافهم الأسلحة، ثم يختفون. كان يقول لي إنّه سيرافقهم وهو لم يعد صغيرًا، وهو يريد أن ينتقم لأسرته لأنّها قُتلت ولم يبقَ غيره. كنت أصغي إليه، وأُشير إليه لينضمّ إلى الأطفال، عند ذاك، كان يمدّ لسانه ويقول: صحيح أنّك مجنونة. فأفتح عينيّ وأقلب جفوني وأنظر إليه، ثم أقلّد ما كانت تفعله الساحرات الشرّيرات في الحكايات، وكان يقفز من مكانه حالما أفعل ذلك، وكنت أجد ذلك مضحكًا، لكنّه حالما يسمعني أغنّي، يركض ويقترب منّي، ويكاد يقفز إلى حضني. ثم صارت النساء يطلبن منّي أن أتلو عليهنّ آيات من القرآن عندما يشتدّ القصف، ولم أكن أفعل ذلك، بل كنت أدور أنا نفسي معهم ونتكوّر. لعبنا كثيرًا في تلك التكوّرات.

في إحدى المرّات وفي منتصف الليل، كانت النافذة مغلقة والحرّ شديدًا. كانت أمّ سعيد أغلقتها قبل أيّام. عندما استيقظنا وحولنا جرابيع كثيرة تتوزّع على السقف، والجربوع هو صغير السحلية ولونه كلون ولد أشقر محمرّ تحت الشمس، وهو صغير لا يؤذي، لكنّهم كانوا يخافونه. جمعت الجرابيع كلّها، ورميتها من النافذة. قالت أمّ سعيد إنّ لي بعض الفوائد، وهي تحكم

تدوير حجابي حول وجهي، وأردت يومذاك أن أصرخ ولم أستطع تحريك عضلة لساني، لأنّها شدّت الحجاب على جبهتي، وكنت أتعرّق وبحاجة لأن أرمي ثيابي الطويلة عنّي. المهمّ في الأمر، أنّني استيقظت وكنت أتعرّق بشكل مخيف. جسدي يفيض بالماء، وظننت لوهلة أنّني فعلتها وتبوّلت في ثيابي. قمت من فراشي وفتحت النافذة وبدأت أقرأ. .. بدأتُ أرتّل.

أمّ سعيد أخبرتني بأنّه يجب أن أجعل تتالي الآيات أقلّ موسيقيّة. قالت: حرام تغنّي هيك، ما تحطّي لحن عالقرآن! لم أستجب لها. لا أعرف تلاوة القرآن إلّا بهذه الطريقة. أمّي علّمتني ترتيل القرآن بهذه الطريقة. كانت ترتّل لي طوال الوقت. وأتت لي بأشرطة مسجّلة لسورتَيْ يوسف ومريم. كانت أمّي لسنوات ترتّل لي قبل النوم هذه السورة، مع سورة مريم، أعني سورة يوسف أيضًا، وهي المحبّبة إلى قلبها، بخاصّة الآيتين اللتين كنت أُعيدهما في الترتيل:

﴿قالُواْ يَا أَبَانَا مَا لَكَ لاَ تَأْمَنَّا عَلَى يُوسُفَ وَإِنَّا لَهُ لَنَاصِحُونَ، أَرْسِلْهُ مَعَنَا غَدًا يَرْتَعْ وَيَلْعَبْ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ﴾.

هذا هو المقطع الذي كانت تغنّيه لي أمّي وتبكي. كتبته هنا مع علامات التشكيل التي أجدها أهمّ من الحروف نفسها. لن تستطيع فهم ما تعنيه الألحان في هذه الكلمات، إذا لم تكن مطّلعًا على قواعد الموسيقى فيه. ما زلت أتساءل لماذا لا تتحوّل علامات التشكيل إلى جزء من الحرف نفسه؟ لمَاذا لا نرسمها مع الحرف ونعطيها الحجم المطلوب؟ ستتحوّل كلُّ كلمة في اللغة

إلى لوحة مثل اللوحات التي تنتظرني في مجلّدات الستّ سعاد، لقد خبّأتها في مكان آمن، ولن يتوصّل أيّ شخص إلى إيجادها، هي في أسفل الصندوق، أربعة مجلّدات ضخمة عن تاريخ الفنّ.

سوف أخبرك بأنّني رأيت أمّي للمرّة الأولى في الحلم. كانت تضع يدًا على جبيني، كما فعلت أمُّ سعيد، واستيقظتُ وهي تضع يدها على جبيني ورأيت نفسي في الحلم أستيقظ. كان هناك حلم داخل حلم، وكنت أمشي في الحلم ولا أتوقّف. أمشي ولا... أتوقّف، وأسمع صوت أمّي. وجهها لا يبدو أمامي، أرى شعرها فقط. وكانت أصابعها على رأسي، لأنّ رجليّ ويديّ لا تطاوعني لألمس أصابعي. تتحرّك أطرافي بسرعة نحو الأمام، وجذعي يسبقها. سمعت همسًا بأنّ عليّ أن أنظر فوقي، ونظرتُ إلى الأعلى ولم أرَ سوى غيمة عائمة تتحرّك. غيمة وحيدة بحجم مخدّتي، تتابع المشي معي. حاولت تحريك رأسي لتبتعد الغيمة، فتحرّكت مع مَيلان رأسي وهمست، أنّها ستبقى معي تحميني، وأنا هناك داخلها وتحتها، وما عليّ إلّا أن أمدَّ يدي لألمس أصابع أمّي، ولم أستطع. كنت أعرف في الحلم أنّني أحلم. الطريق في الحلم الأوّل غير واضح المعالم. في الحلم الثاني الذي أراني داخله، وأحلم أنّني أحلم، كان الطريق يشبه مدخل حارتنا. زقاق طويل وضيّق، ولم تكن حوله البيوت، فقط هناك أشجار عملاقة أغصانها تلتفّ حول بعضها بعضًا، وتمنع عنّي رؤية السماء؛ أمّا نهاية الزقاق، فكان مجرَّد نقطة. وعندما استيقظت من الحلم الأوّل داخل الحلم، اختفى كلُّ شيء، ولم يبقَ سوى الغيمة، وكنت أحاول تحريك لساني وإيقاف رجليّ عن

المشي ويديّ عن المراوحة مع الرِجلين، وعجزت عن ذلك. همست أمّي: اطلعي لفوق. عندما نظرتُ إلى الأعلى، استيقظت. منذ ذلك الحلم وهناك غيمة فوق رأسي، أراها باستمرار. أمدُّ يدي في الواقع، وأحرِّكها حول رأسي. ألمس أصابع أمّي، وأشمّ رائحة أمّي.

في الجهة المقابلة لنافذتي حيث أراقب حتى حركة الهواء الساخن في الظهيرة، كانت هناك حيطان بلون التراب. جدران متلاصقة من البيوت. لا توجد أشجار، شمس حارقة فقط، ربَّما هي الصحراء، لا بدّ أنّ هذه هي الصحراء التي قرأتُ عنها، ربَّما سوريا نصفها صحراء. أذكر أنّني قرأت أنّ هناك مساحة كبيرة من سوريا هي صحراء، ولستُ متأكّدة، لكنّني قرأتُ أنّ الغوطة فيها أشجار كثيرة، وهذا لم يكن صحيحًا. لم أرَ الكثير من الأشجار هنا، ربَّما نحن لسنا في الغوطة! مع أنّ أخي قال إنّنا في الغوطة، وهذا يعني أنّنا في الغوطة لأنّه لم يكذب في حياته، وهذا يعني أنّ الحكاية هنا في الغوطة.

لا أعرف كيف سأنهي هذه الحكاية، لأنّها مرّت بسرعة. يبدو وأنا أروي لك الحكايات الصغيرة هذه أنّني أدور في دوائر متداخلة، وكلّ دائرة أُدخل معها دائرة جديدة، وأفقد دائرتي السابقة، كلّ الأشياء والحوادث وكلّ ما يحدث وحدث في حياتي مرَّ بسرعة. أظنّ أنّ هذه الحياة سريعة أكثر ممّا ينبغي. بالنسبة إليّ ما زلت في زمنٍ وعيت فيه أنّني لا أتوقّف عن المشي، وقد كان هذا يشبه البارحة، لكنَّ الواقع أنَّ سنوات مرّت، سنوات

وسنوات. الوقت لا يُتاح للناس للتفكير في ما يحصل لهم. أظنّ أنّهم، وأنا منهم، مثل قطيع من الثيران، يتدافعون في الركض والعيش، ولا يعرفون ما يحصل، مثلي أيضًا. كانوا مثل فئران، لكن بحجم ثيران! وأنا كنت مثلهم. ننتظر كلّ يوم أن تسقط القذائف فوقنا.

الأشياء عندما تسقط من السماء تبدو مختلفة عمّا هي عليه، فما رأيته من بقايا القذيفة لا يعدو قطعًا معدنيّة لا تساوي شيئًا. وعندما تسقط من الطائرة تتحوّل إلى وحش، ثم إنّي لم أفهم كيف يقومون بصنع هذه الأشياء دفعة واحدة لرميها فوق هذه البيوت الصغيرة والضيّقة، والتي تشبه رسومًا قديمة! هذا ليس مهمًّا لك؟ عليّ إذًا ترتيب الحكاية لك، كما فعلت مع حكاية الحاجز وسقوط أمّي، وكما فعلت مع الفتاة الصلعاء، ويُفترض أن تكون للحكاية بداية ونهاية. لكنّني كنت قد أخبرتك أنّنا كنّا تكوّرنا وتكوّرنا حتى صرنا نسمع أصوات تنفّسنا... لنعد إلى البداية.

البداية كانت عندما دخل الأطفال السبعة إلى غرفتي. كان زوج إحدى النساء، قد طلب أن أعلّم الصغار حفظ القرآن وكتابته، وبما أنّني خرساء، كما يقول، وهذا ما أغاظني، لأنّني سمعته يتحدّث بهذا وأنا أراقبهم من ثقب الباب، هو مقاتل، بلحية كبيرة. كان أصدر أمره، وأنا كنت منذ يومين بدأت كتابة آيات صغيرة للأطفال. أجعلهم يقومون بتلوينها وتحويل أحرفها إلى رسوم، ولأنّ الآيات القرآنيّة بدأت كما طلبت النساء بسورة يوسف، فقط رسمت يوسف للأطفال، كنّا منذ يومين نرسم وجه

النبي يوسف، ونلوّنه ونكتب الآيات، وكنّا نخفي ذلك الأمر عن الرجال، وأخي لم يعد حتى الآن، يقاتل هو أيضًا. يحمل سلاحًا كبيرًا. الرجل العجوز يقول إنّه بخير، وإنّني أمانة في رقابهم، وإنّ أخي أحد شجعان خطّ الجبهة، وتخيّلتُ كيف تكون الخطوط. وهذا أمر آخر سأرويه لك لاحقًا. المهمّ في الأمر، هي الحكاية التي بدأت، والتي يجب أن أنهيها لك. فكما تعرف، كنّا في بيت مكوّن من غرف عدّة يتوسّطه صحن الدار، وداخله مجموعة من أحواض صغيرة من الورد، ورُصفت أحجار حول حيطان الغرف، وجُمعت بواسطة إسمنت عشوائيّ، ووضع داخلها التراب، وزرعوا فيها النعناع والبصل وأشياء أخرى. التراب كان لونه أحمر. التراب الأحمر ينعش لون الحيطان القاتم، لكنّ الزرع والورد كان شبه أصفر، والنساء زرعن بعض النعناع والبقدونس وسط الساحة. الورود التي هناك لم تكن تعجبني. كانت تشبه قليلاً الأشجار النحيلة الباسقة والمهجورة، ولا تشبه الورود التي أزيّن بها حروفي هنا. في وسط باحة البيت، كانت شجرة كبيرة. شجرة زنزلخت، وتحتها طاولة صغيرة، تتّسع لبضعة أشخاص، لكنّ صحن الدار كان يتعثّر فيه الكثير من الأشياء. قالت أمّ سعيد إنّها تراكمت هنا بعد أن بدأت الثورة. هل تعرف ما هي الثورة؟ الثورة هي السبب الذي يجعل الطائرات تقصفنا بالبراميل، هكذا قال عامر، وبعد الحادثة التي سأرويها لك، تستطيع أن تتخيّل الأطفال الذين كانوا في غرفتي، والنساء يراقبننا باهتمام، ويتابعن عملهنّ وهمساتهنّ بلا توقّف. كانت هناك ثلاث عائلات في الغرفة التي تضمّني أنا وأمّ سعيد، ودائمًا هناك رجل ينام في

البيت. الرجال يتناوبون بين القتال وحراسة البيت. كانت أمّ سعيد تقول إنّ لدينا ثلاث نساء حوامل، إحداهنَ تصرخ وتشدّ شعرها بيديها، ثم تدخل الغرفة باكية، تقترب من أمّ سعيد وتمسكها بعباءتها. تشير إلى فتاة اسمها رشا، جميلة وساهمة باستمرار. علّمتُها كيف ترسم زهرة «الأمير الصغير»، وكان أبوها قد قرّر منذ أشهر أن يضع غطاءً على رأسها. كانت الأمّ تلطم بطنها وتبكي، وتتهامس مع أمّ سعيد وتنظر إلى رشا وتذرف المزيد من الدموع. تهزّ رأسها بحركة متسارعة. تعضّ على شفتيها، وبين لحظة وأخرى تتفوّه بكلمة. كلمة واحدة: طفلة! تقترب أمّ سعيد منها وتهمس بأشياء لا نسمعها، فتهبّ المرأة الحامل واقفة وهي تصرخ بغضب، وتلفظ الكلمة نفسها! لم نكن نفهم ما يجري حولنا. الأمّ الحامل حملت رشا فوق بطنها وهي تلهث. حدّقت بالنساء، وهي تخبرهم أنّها ستهرب مع ابنتها، ولن تدعه يفعل بها ما يريد. كانت النساء ينظرنَ بفزع إلى ما تقوله، ويحاولن إغلاق فمها وسحب رشا من بين ذراعيها وهنّ يتهامسن حتى لا يسمعهنّ الرجال، فإذا ما سمعوا، حلّت الكارثة عليها وعليهنّ. ثم اقتربت منها إحدى النساء، وأخذت رشا من بين ذراعيها وأجلستها. كانت الأمّ الحامل غاضبة، وكنت أشعر أنّ قلبي يدقّ وأسمعه، عندما قالت إحدى النساء إنّ زوجها سيقتلها لو سمعها تتفوّه بهذا الجنون. فجأةً، دخل أحد المقاتلين وهو يحمل سلاحًا يؤرجحه بين يديه. حلّ الصمت. النساء تجمّدنَ وخفضنَ نظراتهنّ. صرخ الرجل المقاتل بالمرأة الحامل وطلب منها المغادرة، فسارت وراءه. اختفت لبعض الوقت ثم عادت. كانت صامتة، ورشا ما

تزال تلعب وترسم معي وجه النبيّ يوسف، إلى جانب زهرة «الأمير الصغير»، وتُعيد كتابة السطرين اللذين كتبتهما في بداية الآية. وجه رشا غريب الجمال ويتعذّر وصف لونه. حاولتُ تلوين وجهها وكان ذلك صعبًا. كنت أتنقّل بين رسم لون وجهها، وبين وجه أمّها. لون وجهها يحتاج إلى مزج الأحمر والأبيض، أمّا أمّها فكان وجهها مزيجًا من الأسود والأزرق. حين تغضب، تتداخل فيه بعض الخطوط الحمراء الناعمة. رشا لم تكن مهتمّة بما يحصل. تُعيد رسم الوجوه معي، وأمّها تواصل التمتمة بلا غضب، بلا دموع ولا صراخ. تنظر بخوف إلى الباب الذي دخل منه المقاتل، والذي أخبرني عامر إنّه زوجها، قال لي عامر إنّ رشا هي أجمل بنت في حارتهم، وكانت شريكته في اللعب. وسوف تتزوَّج من مقاتل، ثم أضاف بأنّه مستغرب من غضب أمّها، لأنّ رشا ابنة قائد كتيبة، وسوف تكون زوجة مقاتل، وهذا أمر سيحميها ويجعلها فخورة بنفسها. ثم نظر إليّ بصمت. بقي يحدّق في عينيّ طوال دقائق، وسألني إن كنت أفهم ما يقول. أومأتُ برأسي بالإيجاب. كان ينظر إلى أصابع رشا وهي تتحرّك، ومعها تتحرّك الألوان فوق بياض الصفحة، ثم نزلت دموعه بغزارة، وأخفى وجهه بين يديه، فصرخت به أمّ سعيد، وقالت له إنّه أصبح رجلاً، وإنّ رشا لم تعد صغيرة، وستتوقّف عن اللعب معه هو وباقي الصبيان، فأشاح وجهه عنهم. جلس في الزاوية بعيدًا، وأشار إليّ لأجلس قربه وأعلّمه الرسم.

كان الحرّ خانقًا؛ والصمت عندما يهدأ صراخ الأمّ، يبدو غريبًا، وكنت ألمس أصابع أمّي بين حين وآخر وأبتسم، وأشعر

بأنّ نسمة تخترق صدري، وأنا أحرّك رأسي فتتحرّك معي يمينًا ويسارًا، وكما أخبرتك، فالبيت الذي كنّا فيه لم يكن في بلدة «زملكا»، يعني كان في أطرافها، وأقرب إلى الخلاء، هكذا فهمت لاحقًا من طريقة مغادرتنا المكان بالسرعة الهوجاء، بعد ثلاثة أيّام من هذه الحادثة، ولأنّني حينذاك لم أكن أعرف ذلك، فقد بدأت ترتيب الغرفة وكأنّني سأعيش فيها، وحاولت صنع صندوق جديد لي.

الصندوق الذي حضَرته كان عبارة عن برميل ألمينيوم، قالت أمّ سعيد إنّه مثقوب، ولن يصلح لوضع الماء فيه. وضعته جانبي، في المسافة الفاصلة بين رأسي وجدار الفراش الذي أنام عليه. وبدأت أضع فيه رسومات الأطفال والألوان، وأحفظها، وجعلت من البرميل، والذي كان بطول متر وعرض نصف المتر تقريبًا، كمسند لفراشي الأرضيّ، وحصرته أكثر فأكثر بين الحائط ومخدّتي، ثم غطّيته بقماش.

سأعود إلى الحكاية، حين كنّا لا نزال نسمع أصوات تنفّسنا ونحن نُحشر. النساء صرن يتحرّكن بعد دقائق، وهنّ ينظرن إلى السماء، قالت إحداهنّ إنّ الطائرة غادرت، وصرخ الرجلان بنا لنعود إلى أماكننا، لكنّ أحدًا لم يسمع، وبدأت السماء تظهر أمامي من جديد، وتنفّستُ، كانت عيوننا تنظر إلى السماء، كأنّنا عميان ونبحث عن شيء ما، ولم تكن سوى بضع ثوان، حتى تحوّلت باحة الدار التي أسمّيها صحن الدار إلى حفرة، ونحن طرنا في الهواء، وتكوّمنا فجأة تحت كومة من التراب والحجارة

وزجاج النوافذ. غبت عن الوعي، لأنّ وهجًا محمَّلاً بالنار والغبار والأشياء المبعثرة جعلنا نطير. وخلال لحظات، فقدنا الوعي، أنا ومَن حولي، كنت أطبق عينيّ، وأراهم يفعلون الشيء نفسه.

عندما استيقظنا، لم نعرف كم من الزمن مرّ، أنا والأطفال كنّا بخير. كنت لا أستطيع الحراك أكثر من طول الحبل المقيّدة به إلى النافذة، ورغم أنّ الجدار المواجه لحائط الدار قد تهدَّم بالكامل، إلّا أنّ النافذة بقيت مكانها. لم نعرف ما حصل. كان هناك رجال ونساء كُثر في المكان، لكنّني لمحت باحة الدار. كانت هناك بقايا من أجساد متناثرة، ورأيت جسد أمّ سعيد. كانت بلا قدمين وظهر شعرها المنفوش، كان قصيرًا وأبيض بالكامل، ثم اختفت أمّ سعيد، ونمت نومًا عميقًا لم أصحُ منه إلّا على أصابع تلامس جبيني. اعتقدت أنّها أمّي، لكنّني رأيت أخي، جالسًا بالقرب منّي. يحضن بندقيّته وذقنه قد طالت، بدا رجلاً كبيرًا! قبل أن أتحرّك، طرفت بعيني، ورأيت أنَّ الغرفة قد جُمعت أشياؤها واختفى الأطفال، وثلاثة رجال ينهون تنظيف المكان، ولم أكن في غرفتي واختفى صندوقي، أعني برميلي. لقد كان في الغرفة الخلفيّة في المنزل، والتي بقيت بأمان مع غرفة أخرى، حُشرت فيها العائلة الوحيدة التي بقيت مع الأطفال. أمّ سعيد واثنتان من النساء قُتِلن. اختفين، مع ثلاثة أطفال، أمّا أطفالي، فقد بقوا بخير، وعامر قُطعت رجله اليمنى. قال لي أخي: الحمد لله عالسلامة. كان انتبه إلى أنّني فتحت عينيّ، وعرفت أنّ أمّي لم تكن فوق رأسي.

أروي لك هذه الحكاية، لأنّني نمت بعد ذلك ليومين، وفي اليوم الثالث عندما بدأت أمشي، واستطعت التوازن والحركة ضمن المساحة المتروكة لي مع الحبل الجديد الذي أحضره أخي وكان مؤلمًا، انتقلنا إلى «دوما»، أعني انتقلت وحدي إلى «دوما». وهو ما سأرويه لك الآن عن حكاية الفقّاعات ذات الرائحة الكريهة.

بقي أخي هنا. في الغرفة الناجية، وكنّا وحدنا. الغرفة صغيرة.

الأمّ الحامل الغاضبة التي اختفت مع طفليها، وطارت مع القذائف، بقيت ابنتها رشا مع أبيها. كانت غرفتنا الناجية صغيرة ومغبّرة، وتحتاج إلى التنظيف، بعد الانفجار الذي حوّلها إلى هضاب صغيرة من الغبار التي تتكوّم تحتها أشياء العائلة، وقد رأيت حذاء المرأة الغاضبة ذي الكعب العالي، وبدا لونه زهريًّا مغبّرًا، لكن كانت هناك حبّات تبرق فوقه على شكل وردة، أعرف مثل هذه الأحذية التي تنتشر بكثافة في محالّ «الدويلعة». وكان ملوّثًا بمادّة لزجة، لا بدّ أنّها دماء. لكنّه كان يبرق وسط الغبار. نظّف أخي ما يستطيع ورمى بكتل من الأغراض في باحة الدار التي تحوّلت إلى حفرة. كان باب الغرفة مفتوحًا، وقد ألبسني أخي ثيابًا جديدة. لونها أسود بالكامل. وكانت غريبة لم أعرف صاحبتها، لكنّها كانت أطول منّي بالتأكيد، لذلك كنت ألعب داخل ثيابي كما كانت تقول أمّي. الثياب واسعة وترطّب جسدي، وهو ما أسعدني قليلاً. لكنّ الحفرة وجوانب الحفرة التي تتكوّم

حولها الشظايا المعدنيّة كانت غريبة. تشبه الألعابَ المحطَّمة!

دخل أخي الغرفة، وخرج الأولاد من الغرفة الأخرى. كانوا يلمسون شظايا القذيفة التي صوّرها حسن. تمنّيت لو أستطيع الخروج ولمسها، لم أجرؤ على طلب ذلك من أخي، لكنّ الأطفال خرجوا تحت الشمس، ولعبوا بها. وكان الصمت ثقيلاً، وشعرت بالخوف. الصمت يأتي بالأشياء المؤلمة، أو هكذا اعتقدت، وفهمت لماذا كانت أمّ سعيد تخاف عندما تأتي الطائرة، هذا ما يحصل إذًا! أمّ سعيد اختفتْ، كما اختفت أمّي، وقلت لنفسي، هذا ما يريده الله. كلّ مَن حولي كانوا يردِّدون هذه الجملة.

صنع الأولاد قطارًا من القطع المعدنيّة لشظايا القذيفة، ولم أرَ بينهم عامر. فقط امرأة واحدة بقيت تتحرّك بين الغرف، تبدو ساهمة. كانت مع النساء في باحة الدار ولم تصب بأذى، وهذا غريب! وكانت تبدو مثل نائمة، لكنّها واقفة وتمشي، وتتحرّك. قال أخي إنّه سيجد عائلة تهتمّ بي خلال يومين، وإنّه لن يعود إلى الجبهة قبل أن يؤمّن لي مكانًا آمنًا، وكنت لا أستطيع التركيز على ما يقوله، كنت أحلم! رأيت حلمًا خاطفًا وأنا أغمض عينيّ، كنت في كامل يقظتي. رأيت نفسي ممدَّدة تحت التراب، لكنّ طبقة خفيفة من الفضاء تفصل بيني وبين سطح الأرض. وكنت في الحلم، أرى جذور النباتات التي تلتفّ حول رقبتي، وكان أخي يحاول الوصول إليّ.

لو أنّك تعرف أخي عندما كان صغيرًا، لفهمت ما أعنيه،

كان مرحًا ومجتهدًا في المدرسة، وحنونًا. قال لي في الليلة التي سبقت سقوط الفقّاعات الكريهة، إنّ أصدقاءه قُتلوا وأمّه كذلك، ولم يبقَ لديه في هذه الحياة سواي. كانت الغوطة محاصرة من قِبل الجيش. لا غذاء ولا طعام، ومن الصعب كما قال أخي أن يستمرَّ الوضع هكذا، لأنَّ الناس سيموتون جوعًا، جملته الأخيرة لم يقلها لي. سمعته خطفًا يتحدّث مع الرجال قرب النافذة، وكان الرجال يجيبون بعبارات مبهمة وغاضبة، ربَّما لهذا كان الطعام قليلاً؟ لا أعرف! كنّا نشعر ببطوننا تقرقر بين وجبات الطعام التي تحوّلت إلى وجبة يوميّة، مع سندويش الزعتر. أخي قال إنّ الحصار لن يطول، وإنّنا سننجو، وسنعود إلى بيتنا، وعليّ أن أؤمن بهذا. كنت أهزّ رأسي وأنظر إليه متضرِّعة. اقترب منّي وهمس لي، أن لا أعود لتلحين القرآن، وأردت أن أقول له إنّني لا أفعل هذا بإرادتي، ولكنّني لم أحرِّك عضلة لساني. ولأوّل مرَّة منذ وعيت أخي، أردت أن أضمَّه إلى صدري ليعرف كم أحبُّه، لكنّه خرج إلى باحة الدار ليساعد الشباب في ترميم البيت.

غفوت قبل أن أراه. في الساعات المقبلة التي سأخبرك عنها، عرفت لماذا رأيت نفسي تحت التراب ممدَّدة، وعرفت أنَّ الناس مُحاصرون هنا منذ أكثر من سنة. المكان قريب من بيتنا. كنّا نسمع أنا وأمّي هدير الطائرات ودويّ القذائف، وكنت أظنُّها دويَّ رعد. في الصيف الماضي، عرفت أنّها قذائف، وقالت أمّي إنّها الحرب، وأخي قال ليست حربًا، ولم أفهم كالعادة لِماذا يتجادلان طوال الوقت. الآن أفهم، هنا يموت الناس، وهناك يسمعون الصوت الذي يموت به الناس.

لم ألمس سمكة في حياتي. لا أعرف كيف يكون ملمس الحراشف، لكنّني أعرف أنواع الأسماك وأبطال القصص وبطلاتها من الحوريّات ومن كتب العلوم التي تشرح بالتفصيل شكل السمكة، لكن عليك أن تعرف أنني لا أعرف ملمسها، ولا حتى رائحة الزنخة التي يقولون إنّ البحر يشبهها، وهي رائحة أسواق السمك. لم نذهب يومًا إلى سوق السمك، ولم أعرف ما إذا كانت هناك سوق للسمك في دمشق، ولكنّني أرسم الأسماك منذ أن عرفت الألوان. سأخبرك بالسبب: أوّلاً لأنّ خطوطها سهلة، ويمكنك تلوين كلّ حرشفة بلون، وتستطيع أن تخلق عالمًا كاملاً من الألوان من خلال سمكة.

سمكة واحدة ملوّنة تعادل ألوان الطبيعة! علّمتُ الأطفال في الأيّام الماضية كيف يرسمون سمكة ببساطة، وشعرت بالأسف، لأنّ كتاب «الأمير الصغير» لم يتضمّن رسومًا للأسماك، لكنّني

فكّرت في أن أقوم برسم حكاية حوريّة البحر على الأوراق، وتحويلها إلى قصَّة. كان هذا قبل أن تسقط القذيفة في باحة الدار. كنت أفكّر في السمكة، بينما أخي، يقوم بفكّ العقدة التي تربط الحبل الموصول بيني وبينه، لهذا أتيت على ذكر السمكة، وفكّرت في أنّني ومنَ الغد سأبدأ قصَّة حوريّة البحر لما تبقّى من الأطفال هنا، أعني ممّن لم يُقتلوا بالقذيفة، ولن أنتظر حتى يعود عامر، قالوا إنّ رجله الثانية قد تُقطع، لذلك لن أنتظره. لم أخبرك قبلاً، لكنّني أجد صعوبة في الكتابة، أفضّل الرسم. لن أبالغ وأقول إنّني أكتب قصصًا طويلة، لقد كنت أرسم القصص، وهنا لا أجد نفسي قادرة على فعل ذلك، رسمتُ لكَ الحروف كلّها، وهنا تستطيع أن تستمتع بهذه الحديقة، التي هي جزء من غابة كبيرة. أريد أن أُنهي رسمها، لكنّني أخشى أنّ الوقت غير مناسب، وأنّني لا أملك من الألوان سوى اللون الأزرق، وسيكون هذا غباء كبيرًا منّي أن أقوم برسم غابة كاملة باللون الأزرق، إضافة إلى صعوبة كبيرة تواجهني، وهي أنّني لا أملك سوى قلم أزرق وحيد، ولن يكفي حبره لتعبئة المساحات البيض بالظلال المطلوبة. والأمر الذي لم أفهمه، كيف تختلط الألوان هنا! كلّ شيء يتحوّل إلى لون غريب بلون التراب، ربّما لون آخر لا اسم له. لم أعرف اسم اللون. لم أرَ مثله قبلاً. يبدو لونًا يجمع الأشياء كلّها ويحوّلها إلى رسم غريب، كأنّ الحدود بين كتل الأشياء تُمحى، لا أستطيع تفسير هذا بشكل واضح، لكنّني أشعر بأنّني داخل لوحة كبيرة، وقد انسكب فوقها ماء الصرف الصحّيّ الذي يخترق أزقّة حارتنا. لك أن تتخيّل الأمر، لكنّه لم

يكن مفرحًا، لذلك توقَّفت عن التفكير في اسم اللون الذي تخلّفه القذائف. وكنت على وشك النوم. أنام وأستيقظ، ثم أنام وأستيقظ، وباب الغرفة لا يزال مفتوحًا، وبقايا القذيفة في صحن الدار. لا أستطيع إخبارك عن أفواج الأسماك التي كانت تتوالد في رأسي، لكنّها تشبه الطائرات. كانت تتكوَّم فوق رأسي، وأحاول لمس حراشفها ولا أستطيع، ثم تندلق من بطون الأسماك أسماك صغيرة فوق البيوت، وتتحوّل إلى نيران. وأغمض عينيّ، ثم أفتحهما. رسوم «الأمير الصغير» التي أحفظها غيبًا لم تكن كافية. سأرسم تلك القصّة التي أفكّر فيها، وسأرسم أحلامي، لكن الآن سأُنهي لك إحدى حكاياتي، ولا أعرف من أين أبدأ. في الواقع، كان هناك بعوض كثير يطنّ فوق عينيّ وعند أذنيّ، يطير بين رقبتي والمخدّة، ولا أستطيع «هشّه». وكنّا لا نزال في البيت الذي قُصف، وأبوابه صارت مفتوحة، أظنّ بابين من أربعة أبواب، أحدها هو بابنا. أردت أن أجري، أن أقوم بأيّ حركة، لكنّني كنت ممدَّدة ومتيبّسة، وهناك دويّ انفجارات بعيدة. كنت أريد أن أنظر في ما حولي، وخفت، فمن النادر أن أنظر إلى الأشياء بوضوح، خصوصًا في النهار أثناء وجود الآخرين. الآن، ألمح نجمة عالية، شيئًا ما يلمع في السماء التي بدا لونها بين الأزرق والبرتقاليّ. أشرت إلى أخي وهو ينهض خائفًا من هدير الطائرات ودويّ الانفجارات القويّة باتّجاه النجمة، وكان ينظر إليّ بفزع، وأنا وقفت قربه، أمسكت يديه وأشرت إلى تلك النجمة، لكنّ دويّ انفجار جديد جعلنا نرتمي أرضًا.

إذًا، ما أحاول أن أحكيه لك، هو تلك اللحظة، حيث

وقفت وأشرت إلى النجمة، وقلبي يخفق بشدّة. كانت المرّة الأخيرة التي أنظر فيها إلى وجه أخي، وأرى لمعان عينيه، وكانت من المرّات القليلة التي أحاول فيها تذكّر لون عينين بشريّتين، باستثناء ألوان عيون القطط، وعينيْ حسن. لا أعرف كيف تكون عيون البشر. الستّ سعاد لم أكن أنظر إليها بتمعُّن، حتى أمّي نادرًا ما غرقت في عينيها. كنت أنظر في مكان بعيد من صوت محدِّثي ومن المحيطين بي، لكنّني في تلك اللحظة، وأنا أقترب من أخي، وأرمي نفسي على صدره وأشير إلى النجمة، وأرى وجهه تحت ضوء السماء المشتعلة بالقذائف، رأيت عينيه، وهو نظر في عينيّ. كانت المرّة الأولى التي ننظر فيها هكذا. لديّ صعوبة في تفسير الحالة لك، لكنّني اكتشفت كيف تكون عيون الآخرين، وعرفت كيف يكون الخوف. همس لي: غريبة هذه الأضواء، وغريبة هذه الانفجارات، ثم أمسكني من معصمي المربوط إلى معصمه، وارتجف. جلس قربي على الفراش المواجه لكومة التراب التي جمعها في صحن الدار. أحاطني بذراعيه وقبّل رأسي، وغفونا. ثم إنّني لا أستطيع تحديد المدّة الزمنيّة التي غفوناها ونحن جالسان هكذا، ربّما دقائق... ربّما ساعات... لكنّ أخي قفز، وتدحرجتُ وراءه. كنّا مثل دائرتين سوداوين، ثم وقفنا كخطّين مكسورين، وكان هناك دويّ قذائف، وكنت مربوطة بمعصمه، ولم أستطع النهوض، ووقف وهو ينظر بغضب إلى النافذة. تطلّعت معه إلى السماء. لم نرتجف ولم ننبس بحرف، والقذائف تتوالى. العائلات الأخرى تكوّمت حول بعضها، وسمعنا بكاء، وغنّيت سورة يوسف، ولم يكن هناك من

صوت آخر سوى صوتي. لم يوقفني أحد. كانوا يهدأون عندما أرتّل. أشتاق إلى صوتي عندما نسمع هدير الطائرات. لا تعتقد أنّني أعرف كيف تخرج الكلمات والآيات. أبدأ ولا أتوقّف حتى أنتهي، وكان أخي يعرف هذا، إلّا أنّه صرخ: اسكتي! ولم أسكت، فصرخ ثانية: اسكتي! ولم أسكت، واقتربت منه، ووضعت يدي على فمه، ولم أتوقّف عن الترتيل ولم يتوقّف عن الصراخ، ثم صار هدير الطائرة قريبًا.

اشتعلت السماء، وسمعنا صوتًا غريبًا، يشبه الصوت الذي أخفى أمّ سعيد والمرأتين والأطفال، وشعرنا بأنّ الأرض تهتزّ، فوقعت على الأرض ووقع أخي، وتوقّفت عن الترتيل.

هل تعرفِ لمَ أصف لك هذه التفاصيل؟ أحاول فقط تذكُّر أخي.

أظنّ أنّني ما زلت قادرة على العيش، وربّما سأعيش، وربّما سيمرّ وقت طويل، وقد تذهب هذه التفاصيل كما ذهب غيرها، لأنّني متأكّدة من أنّ هناك ما يشبه الزقاق الأسود الطويل في عقلي، وربّما تحت جلدي، أو حتى في صدري! فأنا لا أفهم حتى اللحظة كيف يستطيع البشر التفريق بين معاني هذه الأشياء. العقل والقلب والدم، كلّها تشكّل المعاني التي أشعر بها بالأشياء من حولي. سأعود وأُخبرك عن السرداب المظلم الذي تضيع فيه ذكرياتي، وهو لا يشبه سرداب «آليس في بلاد العجائب». وفيه أحتفظ بأوراق كثيرة رسمتها. الآن في القبو، أحاول كتابة حكاية الفقّاعات مع رسم الحروف. سوف أكون متفائلة وأخمّن أنّك

ستقدر على حلّ ألغاز الحروف والرسوم. المهمّ في الأمر، أنّه في تلك اللحظة، وبينما السماء من فوقنا تتلوّن بأضواء النيران، سمعنا هدير طائرات قريبة، وكان الصراخ يملأ المكان، وخرج الجميع وركضوا. السماء صار لونها برتقاليًا وأحمر وأصفر، وركضت مع أخي. لا نستطيع أن نفترق، لأنّنا كنّا مربوطين. ركضنا دون توقّف، لم أحدِّد الزمن. ربع ساعة، ربَّما أكثر. . . ربَّما أقلّ. . . لا أعرف. خرجنا جميعًا، وصرنا نركض ونركض حتى ظهرت مجموعة رجال، وصرخت بنا لنعود. . .

وكنت أنظر إلى المكان الذي تشتعل فيه القذيفة. كان في الجهة المقابلة للبلدة. المفترض أنّها «زملكا»، أو المفترض أنّنا في الجهة البعيدة من البلدة. كان هناك رجل يركض ويصيح كالمجنون: رجّعوا النسوان. أنا بقيت معلّقة بأخي.

كان الرجال يستعدُّون لإسعاف المصابين، وأخي ينظر إليّ بين حين وآخر ونحن نركض. كنت أرتدي الثياب الواسعة، وأغطّي رأسي وجسمي بالكامل بمعطف صيفيّ أسود. وحذائي كان «شحّاطة» أمّ سعيد البلاستيك الحمراء، كانت هناك أشجار كينا، والتي أحبّها بالطبع، والرجال كانوا يحملون في أيديهم مصابيح كهربائيّة، وهم ينظرون إلى بناء من طبقات عدّة، تغطّيه شجرة كينا ضخمة.

كانت الأشجار تأتيني في حلمي بشكل دائم، وترقص من حولي، وكانت تحديدًا من أشجار الكينا، وهي الأشجار نفسها التي كانت في شارع المدرسة التي عملت فيها أمّي، وشعرت

بسعادة غامرة فجأة، والسماء تُضيء على الأوراق الخضر، وبدأت أضحك، ولكنْ بصوت خافت، لأنّ ألوان الأوراق كانت جميلة، وفكّرت في أنّني أرغب بشدّة في أن أرسم كلّ الأوراق الموجودة على أغصان شجرة الكينا، والتي تصل إلى الطبقة الثالثة في البناء.

ذهب الرجال إلى شارع آخر، وبقيت مع أخي وحسن، وكان يبدو قريبًا إليه، لأنّهما كانا يتهامسان طوال الطريق. حسن كان ينظر إليّ، وأنا أركض وراءهما لاهثة ويضع على ظهره بندقيّة. حسن مقاتل مثل أخي، وله لحية. كان أصغر من أخي. لحيته غير مشذَّبة، وصرنا متلاصقين، وهما يصعدان درج أحد الأبنية، وظهرت كاميرا في يد حسن، وكنت بدأت أشعر بصداع في رأسي، ولم أقدر على تمييز الصراخ الآتي من كلّ الجهات. وفي تلك اللحظة، بدأت القذائف. كان هناك ناس في الطبقات العليا، وعرفت حسن الذي سأروي لك حكايته بعد حين. لم أعرف اسمه في تلك اللحظات. كنت رأيته قبلاً، واسترقت النظر إليه عبر ثقب الباب.

نصعد البناء المؤلّف من أربع طبقات، وكان الدرج إسمنتيًّا ولا يوجد طلاء، والأبواب مغلقة، وكان أخي وحسن يقومان بكسر الأبواب والأقفال، فنجدهم جميعًا نيامًا، أقصد أمواتًا، وكنت أسير وراءهما كالمنوَّمة، حتى إنّني لم أحفظ تفاصيل البيوت الأربعة التي دخلناها. كانت هناك عائلات كاملة ميّتة. لا يمكن القول إنّ أفرادها كانوا موتى، لأنّهم كانوا لا يزالون في

فُرشهم كنائمين. أخي وحسن يهزّونهم بعنف. عائلة من ثلاثة أولاد ورجل وامرأة، والعائلة الأخرى كانت من خمسة أطفال وامرأة.

الهواء ثقيل. اختفت أوراق الكينا والأضواء. هناك بقع من الضوء على وجوههم النائمة. وفي الطبقة الأخيرة، كانت هناك امرأة على الدرج، التقط حسن صورة لها. واهتزّ رأسي من الداخل. وكانت المرأة على الدرج، أمام عتبة بيتها، تحمل طفلاً. المرأة كانت تهبط الدرج ومكوّمة بين درجات عدّة وهي تمسك برأس ابنها، تكوّره في صدرها. رأسها مرفوع إلى السماء وفمها مفتوح. وجهها أزرق. وكنت أرتجف، وأخي يمسك بي، وينظر إلى حسن، ثم قال: اطلع مع أختي... طلّعها وحطُّها بمكان بعيد.

كان حسن ينظر إليه باستغراب وغضب، فيردّ أخي: اعملْ متل ما عم قلّك. ثم هبط الدرج ولحقت به، حتى لا يجرّني وراءه. تُركت الأبواب مفتوحة. كلّ الأبواب التي كسراها، وكنت أفكّر في ما مضى أن أرسم قصّة عن الأبواب، ولكنّني لم أنتبه، كيف هي هذه الأبواب حتى أصفها لك بالتفصيل. كانت مفتوحة ونحن ننزل الدرج ركضًا، وكنت أحاول إغلاقها، وهناك الكثير من الرجال الذين يصعدون ويُنزلون الميّتين! ولم أعرف لماذا كنت أحاول إغلاق الأبواب، لكنّ أخي صرخ بي أن أتوقّف عن هذا الأمر، وكنت أحاول إغلاقها من جديد، ولم أدرِ إلّا ورأسي سينفجر من الصداع، وكدت أختنق، ولم أعد أرى، لكنّني كنت

أركض، وصرنا في الشارع وأشجار الكينا وراءنا. وعند إحدى الزوايا، وقد شعرت بالدوار وتوسّعت عيناي بشدّة، وصارت هناك مثل أشواك تقرصني وتبدأ من الحلق، فكّ أخي الحبل من معصمه، وربطه بمعصم حسن، وكان حسن غاضبًا. قال: خلّيني معكم، فاقترب أخي وقال: حطّها بمكان آمن، وارجع لعنّا. فيك تروح لعربين، فهمت عليّ؟ نظرا إلى بعضهما لثوانٍ، ثم تعانقا. اقترب أخي منّي، وعصرني في صدره، وتألّمتُ، لكنّني لم أفعل شيئًا، وبقيت يداي مرتخيتين، ورأسي يتحرّك بطريقة غريبة، وعيناي تتوسّعان، ولم أنظر إليه وهو يعصرني، ويشمّني، ثم يركض.

كلّ هذا لم يدم أكثر من دقائق!

كان الأمر كذلك، لأنّني لم أعد أذكره تمامًا، ولأنّ الروائح كانت كريهة. وعند ذلك، عرفت أنّ الطائرات والسماء أمطرت في شهر آب تلك الروائح.

ركض حسن، ولحقت به. لم يلتفت، وأنا لم ألتفت لأعرف أين غاب أخي. ركضت وراء حسن، ولم أصرخ، أو أخبط رجليّ بالأرض، كما كنت أفعل مع أخي حين لا يطاوعني. ركضت وراء حسن، وسمعت صوت بكائه. والروائح الكريهة تزداد، والانفجارات لا تتوقّف. وكان هناك رجال يعبرون راكضين يرفعون أيديهم إلى السماء، ويصرخون: أشهد أن لا إلٰه إلّا الله وأشهد أنّ محمّدًا رسول الله، وكانت عيونهم جاحظة، ورأيتها في العتمة. السماء كانت مشتعلة. دارت الأرض من

حولنا، ولا أستطيع أن أصف لك بدقّة الحياة في تلك اللحظة. أعني هل كنّا أحياء أم موتى؟ كلّ شيء يتحوّل إلى صور متحرّكة. فكّرت ثانية في أنّني «آليس في بلاد العجائب»، وأنّ الهرّ المبتسم قد يظهر الآن، وربّما هو هناك عند شجرة الكينا. كانت المرّة الأولى التي يتركني أخي وأمّي مع غريب. حاولت فكّ الحبل من معصمي، وأنا ألهث وراءه، وعضضتُ الحبل، وعضضتُ لحمي، وبقيت أعضّ لحمي حتى شعرت بملوحة دمي، ولم ينفكّ الحبل حيث كنت أعضُّ. كان حسن ينعطف في الطريق، ويركض، ولا ينظر وراءه، وكان يبكي، ويحمل سلاحه في كفّه، أذكر أنّها كانت اليد اليمنى. أركض وراءه، يجرّني جرًّا. لم أعد أرى، كنت أختنق، ثم فقدت إحدى فردتّي «شحّاطتي»، ولم أتوقّف. بقيت إحدى قدميّ حافية، ولم أصرخ. سمعت صوت سيّارة إسعاف، ثم سقطت أرضًا، وأنا أهوي، رأيت كتلة من نار. لا أعرف أين استقرّت. هناك هدير طائرات، وأظنّ أنّه كان الفجر. شممت رائحة غريبة، لم تكن الرائحة الواخزة، ولم يكن التراب الذي سقط وجهي عليه، ثم دخلت ذرّات التراب إلى فمي. جرّني حسن وراءه بعد أن سقطت. جسدي فوق التراب الذي لا يزال يدخل فمي، ولم أستطع النهوض واللحاق به. أغمضت عينيّ. اعتقدت أنّني سأصحو، ثم سيكون هذا كابوسًا، وسأكون في سريري في بيتنا قرب أمّي وأخي.

لم أستطع إطباق شفتيّ، شعرت بشلل في حركة وجهي، وامتلأ فمي ترابًا، ولم أعد أتنفّس، والهواء الذي كان يدخل عبر أنفي كان كريهًا، وشعرت بنعاس وأردت أن أبصق. أغمضت

عينيّ واعتقدت أنّني أنام، وقبل أن أغفو، رأيت حسن يركض وينحني عليّ، ويزيح التراب عن فمي، لكنّني كنت أنام وأرى وجه حسن يقترب منّي، ثم حملني وأخرج التراب من فمي، وركض. كنت أنام.

الرائحة كريهة. اختفى معها أخي.

بينما أكتب لك هذه الكلمات، أشعر بأنّني بأفضل حال. ليس الحال الذي عشته في حياتي، بل الحال الذي يبعدني عمّا حصل تلك الليلة، وعمّا يحصل الآن، وأنا أنتظر أن يأتي حسن من جديد.

مرّت ستّة أيّام ولم يأتِ بعد، هنا لا يوجد ماء، منذ بداية الحصار، ولا يوجد كهرباء. ومنذ ثلاثة أيّام، لم أغسل وجهي. أكتب لك فقط. كلّ ما أفعله أنّني أكتب. لا أتوقّف إلّا ليلاً، حيث لا يوجد ضوء. من حُسن حظّي أنّ النهار في الصيف طويل. الكتابة تتطلّب الكثير من الوقت، فكما تعرف أنّ حروفي رسوم!

شعرت بحبوب حمرٍ فوق جلدي، وكنت أتعرّق بشدّة، لأنّ القبو كان مكدّسًا برزم الأوراق. النافذة المفتوحة تأتي بالغبار

ونثار القذائف، مع ذلك أشعر بأنّني في حال أفضل. لديّ هنا في هذا القبو كائنات غريبة، أُجيد الحركة معها، ومعصمي مقيّد بحديد النافذة العلويّة، والتي لا أستطيع الوصول إليها. حسن أوثقَ الربط، ومدّ الحبل بما يكفي لأذهب إلى المرحاض، مع ذلك، لم أدخل المرحاض منذ يومين، ولا يوجد ماء، وأشعر بحكّة غريبة بين فخذيّ، وفي منتصف صدري، ظهرت حبيبات حمر أهرشها ليلاً نهارًا، ولم أعرف ما أفعله!

سوف أخبرك بما يحتويه هذا القبو من أدوات، لكنّني أودُّ أن أتابع لك الحكاية كلّها. أودُّ أن أرسمها لك، لكنّني عاجزة، وحلقي جافّ.

كنت أخبرتك بأنّني غفوت، وحسن يركض بي. ظننتني في حلم، ولا بدّ أنّني «آليس»، اللحظات التي غفوت فيها، وما زلت أذكرها، صارت مجرّد رسوم. أراقب الغبار من حولنا، وشكل الطريق الذي يتدلّى رأسي باتّجاهه. العالم كلُّه تحوّل إلى غبار. حسن حملني كما يحمل كيس البطاطا. جعل رأسي ينزل أسفل ظهره. كنت ألوح مثل خرقة. وقد تقيّأت في الطريق. ليس تمامًا قيئًا، كان هناك شيء ما يخرج من فمي، وأصوات تأتي من كلّ الجهات. كانت تلك لحظات فقط. قال لي حسن إنّنا ركبنا في شاحنة صغيرة وذهبنا باتّجاه المشفى. ولم أعرف أين يقع هذا المشفى، لكنّني صحوت فيه، وهو ما عرفته من حسن لاحقًا، والذي كان ينظر إليّ نظرة غريبة، ولا يكفّ عن التحديق فيّ، وهو ما أعجبني وكنت سعيدة.

لم أصف لك حسن بعد. ما زلت أنتظره. إنّه أجمل من أخي. من الصعب إخباره كم أبلغ من العمر. عضلة لساني لا تتحرّك، كان نحيلاً. خطوط وجهه ناعمة. شعر لحيته التي طالت يتوزّع على خدّيه، وكان يبدو فخورًا بها، ويحرّك أصابعه فوقها باستمرار. سلاحه كان يبدو مضحكًا وهو يحمله، فقد بدا ضخمًا عليه، لكنّني رأيته يطلق النار مرّات عدّة. حسن شجاع، وكانت عيناه أوّل عينين أراهما وأنا أفتح عينيّ في المشفى. أعني ذلك المكان الذي يشبه القفص، ولا أعرف ما يشبه سواه. سأحاول فهم ذلك المكان الذي صحوت فيه، ورأيت تينك العينين. كان حسن ينظر إليّ بحنوّ، وهو يرشّ الماء على جسدي، وكان يلفّني بغطاء، وقد نزع عنّي جزءًا من ثيابي، وسمعت رجلاً يصرخ به ويقول: حرام عليك. هاد حرام. استر عالحرمة، وكان حسن يغطّيني بغطاء رقيق، وكنت مبلّلة بالماء، وشعري مبلولاً، وحسن وضع الغطاء على رأسي، ولفّ شعري الطويل بين أصابعه، فاقترب رجل منه، وقال: استر عالحرمة. فصرخ حسن به: هي أختي! ثم انتقل إلى جانبي، وكان هناك شابّ قد خلعوا عنه ثيابه، ولا يرتدي سوى سرواله الداخليّ، وكان جميلاً، لكنّ عينيه مفتوحتان، ولا يرمش، وأنا ما زلت أشعر بحرقة في عينيّ، ووخزٍ في صدري، وأردت التقيّؤ.

كانت الغرفة واسعة والأجساد ممدّدة على الأرض، وكان هناك أناس يصرخون. صراخ من كلّ مكان، ونساء ملتفّات بالثياب، والحجاب يغطّي رؤوسهنّ، وكان حسن يصرخ بالرجل أنّه السبب في موتهنّ، لم أفهم ما يعني هذا، لكنّ حسن في القبو

سيقول إنّ الطائرات ألقت علينا قذائف فيها غازات سامّة، وهذه الغازات تتغلغل في الثياب، ويجب أن يخلع المصاب ثيابه حتى لا يموت. النساء اللواتي تمّ إسعافهنّ، بقين في ثيابهنّ، لأنّ الرجال قالوا إنّه حرام أن تنكشف النساء على الرجال، وكان حسن غاضبًا وهو يروي لي ذلك لاحقًا.

كان جسد الشابّ إلى جانبي، وهناك أجساد كثيرة تتوزّع حولي، وفكّرت من جديد أنّني في الحلم، وقلت هذا ليس حلمًا بل كابوس. وكانت يدي طليقة، والحبل غير مربوط. الحبل حرّ. أستطيع أن أمشي وأركض بلا توقُّف، لكنّني لم أقدر على النهوض، وحاولت رفع رأسي، وكان حسن يقوم برشّ الماء على بعض أجساد الشباب الذين يرتجفون، وتتحرّك أعضاؤهم بطريقة غريبة. هناك، وفي تلك اللحظة، ورأسي يرتفع بضع سنتيمترات عن الأرض المبلّلة بالمياه، رأيت ذلك المكان جيّدًا! والتفت إليّ حسن، ونظر في عينيّ، لقد بدأت أفهم! نحن في مشفًى آخر، غير المشفى الخاصّ بالفتاة الصلعاء، وهذا مشفًى غير عاديّ، لأنّ الناس ممدّدون على الأرض بشكل غريب، والرجال والنساء يركضون ويقومون بالإسعافات اللازمة، كما قال حسن. وكانت أمامي أجساد أطفال عدّة تمتدّ، يرتدون ثياب النوم، وكانوا صغارًا جدًّا، ومغمضي العيون؛ ولولا الزبد الذي يخرج من أنوفهم، ولولا سائلٌ برتقاليّ يخرج من أفواههم، والازرقاق على أجسادهم، لظننتهم نيامًا. لكنّني عرفت أنّهم ليسوا نيامًا، وهم سيختفون كما اختفت أمّي وغيرها. الألوان لم تكن قاتمة من حولي. كانت مضيئة مع الموت.

شعرت بكائن غريب يتحرّك في أحشائي، كأنّ شيئًا ما يريد الخروج من داخلي، ولم أتنفّس، حتى كانت هناك يد قويّة أمسكتني، وشعرت بوخز إبرة في يدي، وتهاويت. الآن، أخبرك بالسرّ الذي جعلني في تلك اللحظة أصدّق أنني في حلم، السرّ هو أنّه فقط وفي تلك اللحظات وفي مشفى السجن، وهنا في مشفى «عربين»، كنت أشبه بقيّة الناس، وفكّرت في أن أحلم بأنّ الناس يعيشون مثلي، شعرت برضًى مباغت. هناك من يشبهني في هذا العالم، رغم أنّ هذا يبدو كابوسًا. كنت أشعر بالارتخاء، وأضرب رأسي بالأرض، وهو ما فعلته دائمًا في لحظات الغضب طوال حياتي، وكنت أرى غيري يفعل هذا بطريقة مختلفة، فقد كان هناك رجل يقوم بتحريك رجله نحو اليسار ونحو اليمين، ويصرخ، والجميع من حوله يطلبون منه أمرًا. يصرخون: اتشاهد... اتشاهد... لا إلٰه إلّا الله، والرجل يضرب برجله، وهناك بنت صغيرة تحرّك رقبتها ورأسها بطريقة مشابهة لما أقوم به، وكنت أميّز حركاتهم بصعوبة. لوهلة نظرت إلى حسن. رغبت في أن يبقى بجانبي، ويأخذني ويحملني. فكّرت في أنّ الأمر قد لا يكون حلمًا أو كابوسًا، وفكّرت في أنّ هناك أشياء في الحياة، قد تحدث للناس، وهي تحدث لي، وأنّني من جديد لست مختلفة عن باقي البشر، وهذا جعلني أكثر رضًى من قبل. لكن حسن سيخبرني لاحقًا، أنّ هذا ليس صحيحًا.

حينذاك وأنا أضرب رأسي، جاء إليّ، وأمسك برأسي ووضعه في حضنه، وهمس: لا تموتي...

همس بكلامه همسًا. لو عرفوا أنّه ليس أخي، لأبعدوه عنّي. هكذا أخبرني ونحن في القبو بعد ذلك. حرام عليه أن يقترب من امرأة ويمسّها. أمسك برأسي، وقال إنّني سأكون بخير، وعليّ أن أنام الآن، وهو سيبقى لرعايتي، لكنّه سيذهب ويعود، وهو لن يربط يدي بحبل، كما أوصاه أخي، لكنّني لن أكون قادرة على الحراك، ثم اقترب منّي. عيناه أجمل عينين رأيتهما في حياتي. كان حسن ينظر إليّ بعينين كبيرتين مثل عيون الأمراء في رسوم القصص. عيناه بلون العسل. مال رأسي بين يديه. إصابتي خفيفة كما قال.

لا تتطلّع إليّ الآن!

ربّما تنظر إليّ وأنا أكتب. تتخيّلني كيف أكتب. تتصوّر ما أكتبه أنّه حكاية. ابتعد من هذه الأفكار. اجعل قلبك في قدميك وارمه ككرة جنّيّة! ستفهم ما أقوله! كم تمنّيت لو تستجيب قدمي لرأسي. هناك خلل ما فيّ عليّ أن أحدّثك عنه. يأتي مصحوبًا بصور تشبه الرسم بالماء، لكنّني أفهم الحوادث من حولي هكذا... رسوم تشبه الماء. الماء الأصل. هكذا أجد ما نراه ونعيشه مجرّد رسوم في الماء. هل تؤكّد لي أنّ الأمر ليس كذلك؟ هنا تحت نافذة القبو التي أكتب لك منها، وأضع رأسي تحتها من أجل القليل من الضوء، لأنّ الشموع نفدت، وسأكون مضطرّة لترك الكتابة ليلاً. الليل الذي سأخبرك عنه لاحقًا، والذي تختفي فيه الحياة الانطباعيّة وغير الانطباعيّة.

في مواجهتي الآن، هناك بناء كبير مهدّم. تحوّل نصفه إلى

كومة أحجار. قصفته الطائرة منذ يومين، وطار زجاج هذه النافذة الحديد، وتنشّقت الهواء. لا أخاف من دخول القطط والكلاب هنا، لا أخاف أبدًا إن قفز حيوان متوحّش هنا، يوجد شبك حديد! لكنّني خائفة من فكرة واحدة، سأشرحها عندما أنتهي من صور الغرفة المائيّة في المشفى. أمامي عند نافذة القبو درّاجة تمرّ مسرعة الآن، وبالكاد أحاول التركيز لأكمل الحكاية. الشابّ على الدرّاجة يمرّ خطفًا ويتمايل، كنّا أنا وأخي نفعل ذلك على درّاجته. هو يقود بي. كانت لديه درّاجة كما أخبرتك، ودرّاجته أجمل بكثير من الدرّاجة التي تمرّ أمامي، فكّرت في أن أصرخ للشابّ، وأخبره بأنّني هنا، لكنّني فكّرت في أنّ حسن سيغضب، لأنّه طلب منّي التزام الصمت حتى يعود، ربّما يعود غدًا، وأخبره بأنّني هنا. هي المرّة الأولى التي ألمح فيها بشريًّا يمرّ من هذا الشارع. خائفة أنا، وعندما يعود سأصرخ به، لكنّ عضلة لساني لا تطاوعني، كيف سأصرخ، ربّما يجب أن أصرخ، أو أدقّ على حديد النافذة، وهو ما فعلته فورًا، رغم أنّ حسن أوصاني بالتزام الحذر والهدوء، لأنّه سيغيب ويعود ليأخذني، لم أعرف ما الذي أخّره!

سأعود إلى حكايتي: كنت أفكّر وأنا ممدّدة على الأرض في المشفى، وكان حسن يمسح وجهي بالماء، في أنّ كتلتين لونيّتين هناك أمامي. تداخلت الأشياء في عقلي، كانت الأرض مبلّلة بالماء وهو ما جعلني أشعر بأنّني في لوحة. يرشّون الماء على الجميع. نساء يرتدين الأبيض يتحرّكن بين الكتل المرميّة على الأرض. كانت هناك مجموعة رجال عراة. في الجهة المقابلة،

مجموعة نساء بلباسهنّ الكامل. النساء ميّتات، كنّ لا يتحرّكن. البعض من أجساد الرجال المرميّة تتحرّك. وصيحات غريبة وأصوات حركة وارتطام. هناك خيالات تلوح أمامي، والرؤية غائمة.

اعتقدت في تلك اللحظة، أنّه العالم الذي يجب أن نمرّ فيه عندما ننتقل بين الحياة والموت. هكذا فكّرت، وكنت أتساءل لماذا لا يبدو المشهد محمولاً فوق غيمة؟ أو في وادٍ سحيق؟ إذا كان هذا هو المكان الذي سيأخذني إلى أمّي، فعليه أن يكون مختلفًا، إذ كانت هناك جدران، وفي نهاية الغرفة أو الممرّ، اكتشفت أنّه أشبه بالممرّ. كانت توجد أسرّة أيضًا، وعليها بشر يصرخون، ولم أعرف ما إذا كانوا رجالاً أم نساء أم أطفالاً. الصراخ يختلط، رغم أنّ هناك دويّ طيّارات. قال لي حسن لاحقًا إنّ الطائرات بعد أن ألقت الغاز، عاودت القصف من جديد، وأصابت سيّارات الإسعاف التي جاءت لإنقاذ المصابين، والناس الذين هربوا من القذائف السامّة، وصعدوا إلى الطبقات العليا، لأنّ الغاز يستقرّ في الطبقات السفلى، قد ماتوا في القصف. وأردت أن أسأله لماذا يحصل كلّ هذا؟ لكنّ عضلة لساني لم تتحرّك، وعيناي كانتا غائمتين، وفكّرت في ما قاله أخي يومًا لأمّي، عندما عاد في أحد الأيّام ممزّق الثياب، وصرختْ به ألّا يخرج للتظاهر بعد اليوم، وأنّ المخابرات سوف تقتله فورًا إن أمسكت به. وكانت أمّي تبكي. كان هذا منذ وقت طويل، ربّما من سنتين وربّما أكثر، ولم تكن الطائرات حينذاك تقصف البيوت ولا تلقي الغازات السامّة. لا أفهم كيف تأتي طائرة عملاقة وتقتل

أناسًا صغارًا وضئيلين بهذا الحجم؟!

تبدو القصّة مفهومة عندما أريد كتابتها ورسمها عن وحش كبير يأكل الناس، ولكنْ طائرة! هل هذا ما تفعله الطائرات؟!

كان شعري يلتفّ حول عنقي، ويرشّني حسن بالماء. يغيب ويتحرّك بين الأجساد وأرى خياله، ثم يعود إليّ، يهمس: أنت أمانة الغالي. كنت أرى الدمع يتدفّق من عينيه وهو يتركني ويقوم برشّ المياه على الأجساد الأخرى.

أحاول تحديد الصوت الذي كنت أسمعه، لا أستطيع! لأنّ هناك صراخًا وزعيقًا وقهقهات، وكلمات غريبة. كانت أصوات شهقات وخيالات كثيرة تخترق سمعي، ولا تجعلني أدرك ما يحصل. هناك غرفة مبلّلة بالماء ونحن مثل رسوم تسبح فيها، وهناك أرواح تصعد إلى السماء، لأطفال ونساء ورجال. الأطفال والنساء كانوا أكثر عددًا. استطعت تمييزهم، فكّرت للحظة في أنّ الأرواح عندما تصعد إلى السماء تصطفّ هكذا، ولم أجد أيّ شبه بين الصورة التي كنت أظنّ أنّني سأكون فيها بينما تصعد أرواحنا إلى السماء، وهذه الصورة المائيّة التي تكبر وتكبر. كنت أغيب عن الوعي، وأعود وأفتح عينيّ، وأصاب بدوار من جديد.

في المرّة الأخيرة، وقبل أن يأخذني حسن ويحملني، ثم يخرج مسرعًا، سمعت صوتًا غريبًا وضجّة، وكنت أحاول أن ألمس أصابعي، إذ شعرت بأنّني لا أملك في جسدي سوى عينين وأذنين، قرّبت إصبعي الوسطى من عيني وكانت غير واضحة، لكنّني رأيتها، ثم وضعتها في فمي وعضضتها، أمّي تقول إنّك إذا

كنت في حلم وتظنّ أنّك تحلم، عضّ إصبعك، كانت تضحكني هكذا. وضعت إصبعي في فمي وعضضتها بأسناني. كان موجودًا، وشعرت بألم العضّة، لكنّه كان ألمًا خفيفًا رغم استمراري بالضغط على الإصبع. تأكّدت أنّني لست مجرّد عينين وأذنين، كما يحصل مع الهرّ المبتسم في بلاد العجائب، حيث يختفي وتظهر العينان. كنت أنا كلّي! وهممت برفع رأسي لأرى باقي جسدي ممدَّدًا على الأرض. لم أستطع فصل رأسي عن الأرض المبلَّلة بالماء. يرشّون الجميع بالماء... يفعلون هذا باستمرار. استطعت أن أرفع رأسي وأرميه بالماء، والصرخات والضجّة من حولي مستمرّة. وعندما أدرت وجهي، وفتحت عينيّ، رأيت تلك المرأة. كان وجهها ينظر إليّ وعيناها مفتوحتان، ومن فمها يخرج سائل برتقاليّ اللون، وصرخ أحدهم: هَيْ المرا ميّتة شيلها من هون؟ وكانت جملة: لا إله إلّا الله تتردَّد على شفاه كثيرة... يتمتمون بها. لم يتوقّفوا عن تكرارها طوال الوقت.

لم يلتفت أحد إلى الرجل الذي طلب نقل المرأة وهو يحمل في يده ورقة ويكتب. كان يبدو رغم صورته غير الواضحة، كأنّه غريب عن الغرفة التي تصعد الأرواح فيها إلى السماء. سأحذفه من اللوحة الانطباعيّة التي قرّرت رسمها في المستقبل عن هذا المكان الغريب. كان يرتدي أشياء من البلاستيك ويضع كاميرا على ظهره. يقترب من وجه المرأة ويلتقط الصور لها، وأنا أنظر في عينيها المفتوحتين، وفمها المفتوح، رأيت حتى أسنانها. كانت قريبة منّي، وكانت هناك أصوات ترتفع من حولي، هناك أجساد نساء ترتمي من حولي، وكانت النساء ميّتات ويرتدين

ثيابهنّ بالكامل، لكنّهنّ مبلّلات بالماء.

أدرت وجهي إلى الناحية الأخرى، وكان وجه امرأة أخرى. وجه أزرق. تبدو نائمة فقط، وأردت أن أصرخ أنّني هنا! ولست ميّتة. حاولت الصراخ، لكنَّ عضلة لساني بقيت على حالها. وأردت تحريك أصابعي، وكانت هناك أصابع فوق أصابع يدي. أصابع باردة. لم أجرؤ على الحركة، ربّما أكون ميّتة ولا أعرف. اختفى حسن، وجثث النساء تتكوّم حولي. أغمضت عينيّ، ثم اقتربت أصابع من وجهي، وقام شخص، شخص ما... بتغطية شعري، حمل رأسي بين يديه، وأنا كتمت تنفُّسي. هل تعرف ما هو الخوف؟ الخوف هو ألّا تستطيع التنفُّس، هكذا ببساطة! قام بوضع حجاب على رأسي، وحرّكني قليلاً، ثم حرَّك المرأة التي بجانبي، وصارت أصابعها فوق بطني، وتوقّفتُ عن التنفُّس. فكَّرتُ في أنّ هذا هو الموت، ويكفي الآن أن أقطع تنفُّسي، لأدخل في الموت، كم مرّ من الوقت؟ لا أعرف! لكنّني عدت أتنفَّس ببطء، ولم أفتح عينيّ، وخفت من عيون النساء حولي. برد شديد يتسلَّل إلى جسدي، ثم أمسكني من أطراف أصابعي، كأنّني أتحوَّل إلى تمثال من جليد. هذا يحدث في الحكايات. ملكة الثلج تقوم بتحويل البشر إلى ثلج، وأنا أتحوَّل الآن إلى ثلج، والذي وصل منتصف جذعي، وعدت لإغماض عينيّ. أنا أموت مرّات عدّة. كلّ دقيقة أموت بطريقة مختلفة ثم أعاود العيش، فقدت قدرتي حتى على فتح عينيّ، وشعرت بارتخاء ونعاس. الآن، عندما أفكّر في تلك الثواني، حيث كنت أعتقد أنّ هذا هو الموت، هو نعاس يأتي تدريجًا وهو شعور لذيذ وعميق في الرأس

يخرج من مكان سحيق، يصعد بهدوء، ثم يجعلني أرتمي في هاوية فارغة، لا قرار لها، لكنّها هاوية لذيذة، كأنّني أسقط بنعومة من قمّة جبل عالٍ، كأنّ الجاذبيّة تحوّلت إلى ما يشبه راحة الكفّ. قرأت عن لحظات ما قبل الموت. أعني في الروايات التي كنت ألتهمها، وكلمة ألتهمها أحبّها، أفضّلها على كلمة أقرأها. فكما تعرف، وربّما نسيت إخبارك بأنّ أمّي كانت تقول عنّي «فأرة كتب» أقرض الأوراق قرضًا. وكنت أتخيّل نفسي فأرة. أعرف الفئران جيّدًا. لقد عاشت في ساحة البيت الذي سكنّاه، وقتلنا منها الكثير، وفي إحدى المرّات، أخرجت أمّي جبلاً صغيرًا، أعني كومة. أخرجت أمّي حينذاك كومة من الأوراق المفتّتة من تحت سريري، وهي تسبّ الساعة التي بلاها الله فيها ببنت مجنونة، لقد كنت أكدّس الأوراق التي أرسمها في الفراغات القليلة بين كومة الأشياء التي تحشرها أمّي تحت السرير حتى تتسع الغرفة لنا. كومة الأوراق التي قرضتها الفأرة كانت قصّة كتبتها ورسمتها ولوّنتها، تتألّف من عشرين صفحة. بقيت أيّامًا أبكي، ولا أتحرّك من السرير. حقيقة، لم أكن أبكي فقط من أجل أوراقي التي فتّتتها الفأرة، بل لأنّني نسيت كيف يمكنني العودة إلى الرسم وكتابة تلك القصّة.

ما أردت إخبارك به، كان عن الموت، وعن المفارقة التي أحاول فهمها في تلك اللحظات التي كنت أنعس بينما الروائح الكريهة لا تزال في أنفي، وأسبح في الماء مع مجموعة من النساء الميّتات، واللواتي كنّ يتجمّعن حولي، وكانت رائحتهنّ غريبة أيضًا. لكنّ لحظة النعاس تلك، وبعد أن قام أحدهم بتغطية

وجهي وشعري، ظنُّوا أنّني ميّتة، وصارت أصابع فوق بطني. أصابع المرأة الميّتة التي أخبرتك عنها، تلك اللحظة التي أحاول الآن تفسيرها، وأستعيد كلّ ما قرأته من كتب ومشاهد حول الموت. اللحظة التي لا تشبه أيّ لحظة قرأتها، ولم أتخيّل أنّني سأكون قادرة على الشعور بها، لأنّني أعرف أنّ هناك فراغات في عقلي، فراغات بمشيئة الله الغامضة، كما تقول أمّي. كانت لديّ خطّة منذ زمن! وهي أنّني سأرسم رواية طويلة، وأكتبها، مؤسف أنّني أكتبها بلا ألوان ولا رسوم، وأفكّر في أنّه سيأتي الوقت المناسب لأحوّل هذه الكلمات إلى رسوم. داخل كلّ حدث، هناك حركة، هكذا أقول لنفسي. ليس من الضروريّ أن يكون الحدث ضمن إطار مربّع، كنت أفكّر في أنّنا نستطيع أن نجعل ألوانًا في أحداث الرسوم، بحيث تتحوّل الصورة إلى جزء من لوحة كبيرة في كلّ صفحة، وتختفي الخطوط السود ذات الزوايا الحادّة، وتحلّ محلّها الألوان... لا أعرف لمَاذا آتي على ذكر هذه الأمور الآن، وأنا أكتب عن انتظاري حسن، وأشرح لك اللحظات التي متُّ فيها للمرّة الرابعة وعشت. ربَّما هو الماء. نعم، هو السبب الحقيقيّ الذي دفعني إلى ذلك. إنّه الماء الذي كانت الجثث تعوم فيه. لم تكن تعوم حقيقة، لكنّني شعرت بها كذلك. كانوا لا يزالون يرشُّون الماء على المزيد من الأجساد، وكنت أموت، وأسقط في نعاس لذيذ. لم أفكّر في أيّ شيء، هذا ما أردت قوله لك، كنت أعرف أنّني أموت. كلُّ من حولي كانوا يموتون. رأيت أطفالاً عدّة ينعسون، يغلقون عيونهم، وكان هناك رجل يصرخ بابنه وهو يرشّه بالماء: بابا لا تنام... ورأيت

الولد يغلق عينيه وينام. رأيتهم يفعلون هذا. يحاولون إيقاظ مجموعة من الكتل النعسة المتأرجحة في الماء. الكتل الغريبة بدت كرسوم مائيّة، والتي كانت أجسادًا لرجال ونساء وأطفال، وكتل أخرى بعيدة قليلاً لأشخاص كانوا يصرخون ويهزّون رؤوسهم أو أياديهم أو أذرعهم. وهؤلاء لم أنظر إليهم، كنت أسمع أصواتهم. وفي تلك اللحظات، لم أكن أستطيع النظر إلى أيّ شيء! كان هناك فقط السقف. لحظات أو ربّما دقائق، كنت أسقط فيها في النوم اللذيذ، والتي لم تكن تعني شيئًا إلّا الهدوء الذي حلمته. كنت أعرف أنّني أموت، ولم أكن غاضبة ولا خائفة، بل كنت أشعر بالرضى، وكان السقف فوقي سماء، وهناك مروحة بيضاء معلّقة في السقف لا تتحرّك، ربّما الكهرباء مقطوعة، وفي السقف اهتراء للدهان، استطعت رؤيته رغم الغبش في عينيَ، لكنّه تحوّل إلى غيوم، ولم أفكر في أيّ شيء، وكلّ ما قرأته عن لحظات ما قبل الموت والانتقال إلى العالم الآخر، لم تكن صحيحة، لأنّني شعرت باستسلام حلو، ولم أفكّر في ما يحصل حولي، حتى سبب وجودي هنا! وغاب حتى سؤالي الذي كان يجعلني أدور حول نفسي، وهو: هل كان العالم دائمًا على هذه الحال، هل كان فعلاً؟ ولم أعرف، لأنّني مربوطة في غرفتي. هل فعلاً هناك في العالم الآخر، هناك وسط دمشق وفي حارتنا وبيتنا؟ ألا يزال ذلك العالم قائمًا؟ هل اختفى وتحوّل إلى عالم من قصص ورسوم؟ وكيف يعيش الناس هناك بشكل طبيعيّ، ويحدث هنا ما يحدث؟ الآن أتساءل، لكنّني في تلك اللحظات، كنت أهوي في العتمة. كان الظلام دبقًا، ولم يشفع له الماء.

الممرّ الأسود الذي أطبقت عليه جفوني كان دبقًا أيضًا وضيّقًا، تتخلّله نقاط زرق. . . تلك الحُبيبات التي شعرت بأنّها تأكل عينيّ. أحاول تذكّر القصّة كما حصلت. لقد دخلت مع الدبق والظلام في موتي ذاك.

صحوت وحسن يصفعني على وجهي، ويصرخ كما صرخ الرجال من قبلُ، وهو ما جعلني أتأكّد أنّني أموت: فيقي فيقي. . . لا تنامي. . . وكنت أشعر بيديه حول يدي، أصابعه! تخيّل أنّني شعرت بأصابعه، وهي تهوي على وجهي، ومن ثم أصابعه وهي تمسك بأصابعي وتفركها، وبالرجال من حوله، ينهرونه وهم يطلبون منه الابتعاد، واحترام حرمة النسوان. كان صوت بعيد يقول: هدون نسوان اطلع من عندك. استر عليهنّ! وكان حسن يصرخ بهم: هدون ميّتات! ثم يصفعني من جديد. الآن، وبعد مرور الوقت، أعرف أنّني كنت غاضبة لأنّه أيقظني، ولم يدعني أهوي بسلام في دبق الظلام. كان الدبق هادئًا ولذيذًا، تمشي إليه كأنّك لا شيء. . . لا شيء! كان هذا تمريني الرابع على الموت. اكتشفت في الأيّام الماضية أنّ الحياة هي تمارين على شعور الدخول في الموت. كلّ ما يحصل هو تمرين، مثل التمرين على الرسم والخطوط والألوان.

فكّرت الآن في أن أقوم برسم صورة الموت. كنت قبل هذا أعتقد أنّ الرسم أكثر قدرة على التعبير من الكلمات، وكانت الخطوط والانحناءات والزوايا والألوان تستجيب لي أكثر من الكلمات. لم أستطع تخيُّل شكل رسم الموت. الآن بعد ظهور

الموت، عرفت أنّه ورقة بيضاء تتحوّل إلى الأسود، عبر تتابع بضعة ألوان مائيّة من درجات الأسود، ثم تعود بيضاء خلال ثوانٍ. الموت هو تلك الثواني السود التي تحوي داخلها نقطة حمراء صغيرة. النقطة الحمراء هي بوّابة دخول الموت. أحسست بالثواني السود قبل أن أفتح عينيّ، وكانت النقطة الحمراء أمامي، وشعرت برموشي ملتصقة، لكنّ ضوءًا باهتًا بدأ يتسلّل من بعيد، نور تتخلّله خيوط سودٌ، حبال سودٌ عملاقة، لم تكن سوى رموشي التي اشتبكت مع بعضها بعضًا، ثم تجاوزتُ تلك الحبال السود ووجدت الضوء. جسدي لم يكن معي، كان قد تبخّر. وكانت هناك حبيبات ناعمة تجري في مساحة الضوء أمام عينيّ. عادت الأصوات، إلّا أنّني لم أتحرّك. وكان شيء ما سيخرج من أمعائي. أمسكني حسن من أصابعي، ثم تنفّست، وخرج ذلك الظلام مشبّعًا بالروائح الكريهة. خرج من معدتي وعينيّ. كنت أنظر في عينيْ حسن. كانتا واضحتين، الأدقّ كانتا مخضّلتين بالماء. أنت تعرف ما الذي تعنيه عينان مخضّلتان بالماء الذي يسمُّونه دموعًا!

كم أحبّ الكلمات ومعانيها!

كنت أسبح في الماء، وكان يخترق حتى نصف مؤخّرتي، وأصابع متكوّمة حولي. أصابع مبلّلة بالماء لجثث النساء.

حين فتحت عينيّ على سقف الغرفة التي بدت لوهلة تمطر بقشور الدهان، وهطل الماء من جديد، كانت هي اللحظة التي عدت فيها إلى الحياة. تلك اللحظة التي أستطيع أن أحدّثك فيها

عن السعادة. كان لديّ كتاب وجدته الستّ سعاد تحت جسر «السيّد الرئيس» وسط دمشق، أخي سمّاه لاحقًا جسر الثورة كما سبق وأخبرتك، لكنْ عندما جاءت به الستّ سعاد، كان الجسر لا يزال جسر «السيّد الرئيس». الكتاب غريب. اسمه «فقه اللغة»، كتبه رجل اسمه «الثعالبي» وهو أديب عاش قبل ألف عام تقريبًا! أحببت اسمه، وتخيّلته يتحرّك مع ثعلب أحمر مثل ثعلب «الأمير الصغير». اكتشفت السعادة، عندما بدأت بالصفحة الأولى من هذا الكتاب. كان هذا قبل سنتين ونصف السنة، في بداية الشتاء، استطعت تحويل المعاني الغريبة والصعبة في ذلك الكتاب إلى صور. هنا في القبو لا توجد ألوان. لديّ الرماديّ، الأسود والأبيض، لا . . . لا يوجد أبيض هنا، هنا لون واحد، هو لون الغبار، لكنّني أفهم الألوان عبر الكلمات، لذلك أعود إلى كتابي المفضَّل الذي بقي فوق صندوقي في بيتنا. لقد رسمت وجه «الثعالبي» ويا للمفاجأة! لقد كان لونه أحمر، ورسمت إلى جانبه ثعلبًا أحمر! وفي إحدى المرّات، رسمته مع «الأمير الصغير» وإلى جانبهما الثعلب المشترك، ورسمت حكاية صغيرة بينهما. تمنّيت لو أنّها كانت جزءًا من حكاية «الأمير الصغير». الحكاية لا تزال في بيتنا، وهي حوار بين «الأمير الصغير» و«الثعالبي» عن السماء. لا أعرف إن كنتَ قرأت الجملة الأولى في هذا الكتاب الذي يشرح المعاني، وأنا تخيفني معاني الأشياء عندما تتحوّل إلى كلمات، إذ يصعب عليَّ فهم الكلمات المجرَّدة دون تحويلها إلى رسوم، لذلك عندما قرأت الجملة الأولى في كتاب «الثعالبي»، «كلُّ ما علاك فأظلّك: فهو سماء» تغيّرت حياتي! كنت للمرّة

الأولى أقرأ معجمًا لغويًا مثل هذا، قرأت موسوعات علميّة وفنيّة، ومعاجم عاديّة، لكنّها كانت المرّة الأولى التي أغرقتني بشرح معاني الكلمات، وهذا كان مدهشًا.

لماذا يشعر الناس بالتعاسة وهم يملكون هذا الكمّ الهائل من المعاني؟

هل تعرف، منذ تلك اللحظة، صار العالم كلُّه ملكًا لي. سقف بيتي صار السماء، وسقف هذا القبو هو السماء، واللحاف عندما أطمر نفسي تحته وأرسم، هو السماء، كلّ ما علاني هو سماء، وهكذا تستطيع أن تصنع عالمًا كاملاً من الكلمات. في السنوات الماضية، وأنا أجرّب لعبة الكلمات، لم أتوقّف عن الرسم نهائيًا، لكنّني صرت أحبّ رسم الصور بالكلمات.

كلُّ هذا الحديث لأخبرك عن السعادة التي جاءت فجأة وأنا أنظر إلى السقف المهترئ الذي يهطل دهانه المتقشّر فوقنا في المشفى، لم أكن أنظر إلى السقف، كنت أرى السماء، فكلُّ ما علاني وأظلّني هو سماء، أتخيّل شمسها الحارقة، وكان نظري يذهب بعيدًا...

حملني حسن، وخرج بي من الغرفة المائيّة، ثم جرى بي، ووضعني مقابل درج بوّابة المشفى، وأسند رأسي إلى الحائط، وكنت في وضعيّة نصف جالسة. صار يمسح وجهي، وكنت أنظر إلى السماء فعلاً. كانت البوّابة مفتوحة، وكانت هذه السعادة التي تأتي على دفعات، تجعلني أتمنّى لو أنّ العالم استمرّ على ما هو عليه، فقد كان حسن يقترب منّي بنعومة، ويحاول ألّا يقسو عليّ،

وكنت لا أرى الخيالات التي تأتي وتروح ولا الصراخ، واختفى هدير الطائرة التي كنت أراها من بعيد في السماء، وكنت أنظر وأرى السماوات من فوقي، كلّ السماوات وجه حسن وعيناه والسماء الزرقاء وأعمدة الكهرباء كلّها كانت فوق ناظريّ تتحوّل إلى سماوات، ولم أكن حزينة، أصابعي بدأت تتحرّك، وصارت رؤيتي أوضح. وهناك في تلك اللحظة، رأيت ما يُحيط بي. كان هناك طبيب يرتدي لباسًا أبيض بالكامل وحوله ثلاث نساء يرتدين اللون نفسه، كانوا يتحرّكون مثل أربعة خطوط بِيضٍ، يقفزون بين الجثث، ورجل ما يمسك خرطوم ماء ويرشّ مجموعة من الأجساد، لم يكن للماء لون، والخرطوم لونه أحمر، ثم دخل طبيب آخر بلونه الأبيض، وكان يبكي وهو يقوم بحمل بعض الأنابيب الزجاجيّة في يده، ويسجّل ويكتب عليها شيئًا ما، ثم يطلب من الشابّ الواقف بمحاذاته أن يرفع الجسد الذي كان يجلس قربه. كانوا يجمعون الأجساد في زاوية بعيدة من الممرّ، ويستمرّ الطبيب بالكتابة والبكاء. كانت الزاوية البعيدة تكبر، والطبيب يتنقّل ويتحدّث بهدوء وهو يعطي أوامره للشباب. وكان حسن من بين الشباب، يحمل الجثث ويضعها في الزاوية ثم يقف إلى جانب الطبيب، وكان الناس يركضون ويقفزون. يخرجون ويدخلون. وأجساد تُرمى عند مدخل المشفى وأجساد تخرج من المشفى. وكنت لا أميّز شيئًا باستثناء اللون الأبيضِ الذي يتحرّك به الأطبّاء والممرّضات، لكنّ امرأة كانت تقف مواجهتي، أمام ثلاثة أطفال ممدّدين تحت قدميها، كانت ترتدي لونًا رماديًّا، حجابها وكلّ ثيابها، لونها رماديّ فاتح. تقف أمام أجساد

الأطفال الثلاثة وتحدّق فيها. كانت مثل حجر، لا ترمش، لا تتحرَّك. يرتطم بها الداخلون والخارجون، لكنّها لا تتحرَّك. لا تهتزّ. عيناها على أجساد الأطفال؛ وكان هناك رجل يقترب منها ويمسكها ويحاول تحريكها، لكنّها لا تتحرَّك، فيصرخ: يااااالله... وكانت المرأة لا تلتفت وتتابع التحديق، وجهها أصفر. كانت قريبة منّي، عندما أدرت رأسي إلى الجهة الأخرى، ثم حاولت إعادة النظر إليها، كانت قد اختفت، والرجل يسأل: وين أمّ الولاد. وين أمّ الولاد؟ ولم يكن أحد يجيبه. كان يصرخ وهو يحضن الأولاد الثلاثة الممدَّدين كأنّهم نيام. سكينة غريبة على وجوههم. شعرت بالخوف! كانوا يرتدون ثياب النوم، كانت متشابهة. ولكن لكلّ واحد منهم لونه، الأحمر والبرتقاليّ والأصفر، ثلاثة ألوان ممدَّدة في الماء... وسمعت أصواتًا من المكبِّرات في الجوامع، كانت تطلب الأغطية والبطَّانيّات، والأصوات لا تتوقّف، وأنا أغمضت عينيّ، ووددت لو أنّ حسن يجعلني أستلقي من جديد في الماء، لكنّني لمحته يلتقط صور الأجساد، ويقفز بينها، ثم بدأت الألوان تختلط، ولم أعد أميّزها، وأطبقت عينيّ، لم يكن نعاسًا، لكنّني نمت. ولم تكن هناك ألوان في نومي.

هل تعرف أنّني استيقظت في أحد الأيّام ورأيت أنّني ضوء معلّق في السقف، وكنت أتأرجح داخل ورق مقوًّى لونه أبيض، بياضه ناصع، وكان هذا الضوء يشبه الضوء الذي تعلّقه الستّ سعاد وسط غرفتها. أذكر أنّني كنت لأوّل مرّة في حياتي أرى شيئًا كهذا، هو ضوء صغير يتدلّى من خيط رفيع، وحول الضوء مظلّة بيضاء. كانت المظلّة البيضاء فوق الضوء، أدهشني أن تكون كبيرة ومزخرفة على هذا النحو الدقيق! ثم رأيت لاحقًا الكثير منها، وفي الكتب المصوَّرة أيضًا. عندما استيقظت، وأنا في القبو، كنت أرى هذا الضوء نفسه، وكان بتفاصيل تخريمات الدانتيلّا نفسها، لكنّ المظلّة كانت كبيرة، أو ما اعتقدته ـ وأنا صغيرة ـ مظلّة. كان الضوء يأتي من بعيد، وأنا أحاول فتح عينيّ وأتخيّل ما حصل، وسبب وجودي هنا، لكنّ الضوء كان حادًّا، ويمنعني من الرؤية، وكانت مظلّته تقيّد حركتي. رفعت

رأسي لأرى ما يحصل خارج المظلّة، وعدت إلى رؤية عينيْ حسن. وكان جالسًا قربي، ينظر إليّ، لكنّه لم يكن ينظر إليّ في الوقت نفسه! وكنت ممدَّدة على فراش، ورأسي وجسدي عليهما غطاء لونه أحمر، رائحته قذرة. كان حسن يحرِّك شفتيه ويتحدَّث معي، ولم أسمع شيئًا، فأغمضت عينيّ من جديد، ورأيت من طرف نافذة القبو قطعةً من السماء، كانت زرقاء وصافية كالعادة، ثم انتبهت إلى أنّ هناك نساء وأطفالاً في الزاوية المقابلة، كانوا نيامًا. كانت امرأتان تنظِّفان القبو، وحسن يساعدهما. الأطفال الثلاثة كانوا ممدَّدين، ويدي مقيَّدة إلى حديد النافذة العلويّة.
لك أن تتخيّل الآن وأنت تتابع قراءة كلمات هذه الحكاية الجديدة التي دخلت على الحكاية الأساسيّة، أو افترضت أنّ حدثًا ما سيحصل، لأنّ هناك بشرًا كانوا يتحرَّكون حولي، وهذا القبو عبارة عن ورقة كبيرة ونحن خطوطها المضحكة، خطوطها المتوازية، والمتقاطعة المدوَّرة التي تصنع عيوننا وأنوفنا.. . لك أن تتخيّل مثلاً أنّني كنت ذلك الخطّ الصغير المستقيم، الموازي لخطٍّ مستقيم هو فراش من الإسفنج، ولو أنّني كنت أفضّل أن يكون هذا الفراش مقلوبًا على شكل جدار، وأنا أجلس فوقه، مثل جدار «الأمير الصغير» في الحكاية! ثم لك أن تتخيّل أنّ الأطفال النائمين كانوا مثل دوائر متكوِّرة حول بعضها بعضًا، وكلّ ما عدا ذلك يشكِّل مساحة غير مفهومة من تداخل الألوان، لأنّ الخطوط تتقاطع وتتلاقى، ونقاط تقاطعها غير مفهومة بالنسبة إليّ؛ فأمام الفراش، كانت هناك أكداس من الرزم الكرتون،

والتي اتَّضح لاحقًا أنّها قطع كبيرة من الورق المقوّى، المستخدم في قبو المطبعة التي نحن فيها، والتي كنت آمل عندما استطعت لمسها تحويلها كلّها إلى حكايات ملوَّنة، لكنْ، كما أخبرتك، اللون الوحيد المتاح هو اللون الأزرق.

المرأتان كانتا تقومان بمسح وجوهنا وتنظيفها، وتستمرّان بتحريك شيء ما يغلي فوق رأس غاز صغير. كنت أسمح لهما بفعل ما تشاءان بي من فنون الاهتمام، وعندما فتحت عينيّ للمرّة الثانية اكتشفت أنّ المكان كان أكثر نظافة، وكان في المنتصف غطاء من القماش، وعليه ورق جريدة وفي المنتصف بعض الخضروات، ورغيفان من الخبز، وكيس من التفّاح، وكنت جائعة، ولكنّني كنت بحاجة إلى التبوُّل، وحاولت شرح ذلك للمرأتين، ثم اكتشفت أنّني فعلته لمرّات في ثيابي. رائحتي كانت كريهة، وكانت المرأتان تنظران إليّ بريبة، رغم أن شكليهما لم يكونا أفضل. لم تتحدّثا إليّ. كانتا محمرّتي العيون، وتنظران في الفراغ، وتتحرّكان مثل دمًى مهترئة، ولم أفهم لِمَاذا كانتا فقط هنا في هذا المكان، رغم أنّ دويّ القصف لم يتوقّف، وحسن اختفى عن ناظريّ. أغمضتُ عينيّ في إحدى نوبات ولعهما بتنظيفي وتحريكي مثل دمية، وكانتا تحاولان فتح شفتيّ، وإنزال بضع قطرات من الماء في حلقي. كززت على أسناني، وتحوّلت إلى خشبة يابسة. كنت خائفة، أعتقد أنّني أستطيع القول، وربّما أنت خمّنت ذلك منذ بدء حكاياتي، أنّني كنت خائفة، لكنّني أخاف أن تكون من أولئك الذين يقرأون

وينتظرون الكلمات الجاهزة الواضحة والمباشرة، والذين لا يحبّون ألعاب الحكايات. لذلك، أقول لك إنّني أدركت أنّني أتبوّل في ثيابي منذ اللحظة التي جرّني حسن فيها على التراب، وهو يصرخ: كيماوي... ولم أفهم ما كانت تعنيه تلك العبارة لحظتها، لأنّ الكيماوي يعني بالنسبة إليّ فقط مادّة الكيمياء التي كانوا يدرّسونها للبنات في المدرسة منذ الصفّ السابع، ربّما الثامن، لم أعد أذكر، ولم أفهم علاقة هذا بما يحصل!

اليوم اكتشفت أنّني مجرّد كتلة من الروائح الكريهة، وشممت تلك الروائح وتلك النظرات الغريبة التي ترمقني بها المرأتان وهما تحدّقان في امتداد الحبل الواصل بين حديد النافذة ومعصمي وجسدي، وعنادهما للاعتناء بي، ثم أغمضت عينيّ من جديد، ونهضت وأشرت إلى الخارج. ووضعت يدي على خصري، وأشرت إليهما بأنّني أريد أن أتبوّل. قامتا بفزع، وجاءتا بملابس.

هناك كيس أسود كبير يحتوي على ملابس، موضوع بجانب الأطفال، يعني أنّنا ستّة أشخاص ومعنا كيس أسود، وأشياء هنا تحوّلت إلى بيت صغير. قامتا بمسح جسدي بقميص مبلّل بالماء، وكانتا تبكيان طوال الوقت، وغيّرتا الملابس، ثم خرجت إحداهما ورمتها في الشارع. وكنت أنظر إلى الشارع، لأنّ رأسي يصل إلى مستوى النافذة بعد أن أصعد فوق الرزم الجانبيّة، وألمح القليل من الخارج. رمت المرأة الثياب، وعادت مسرعة تنزل

درج القبو وهي تلهث! والتفّت القطط حول الثياب، وأغمضت عينيّ من جديد. كنت أرتدي ثيابًا مختلفة. ثم أمسكت إحداهما يدي، وقادتني إلى زاوية فيها مرحاض، وأغلقت الباب. كان الحبل ممتدًّا بما يكفي لأصل إلى الدرجة الثالثة من درج القبو، ويكفيني لأتبوّل. التغوُّط مشكلة كبيرة هنا. المياه مقطوعة منذ بدء الحصار، وهو أمر لم يكن جيّدًا، لكنّني لم أتغوّط، تبوّلت فقط، كانت الرائحة كريهة. معدتي كانت فارغة. والغريب أنّني لم أكن جائعة عندما استيقظت للمرّة الثانية، رغم أنّ أيّامًا مرّت ونحن هنا، كما سمعتهما تتحدّثان، لقد نسيت وجهيهما! وكنت تقيّأت سوائل غريبة. كان حلقي يحرقني وعيناي توجعانني، وأشعر بدوار، وكلّ من كان في القبو يعاني من الأعراض نفسها. الأطفال كانوا في الغالب نائمين، لم أستطع تحديد أعمارهم، كانوا مثل كتل مدوَّرة حول نفسها. قلت لك منذ قليل، إنّ أشكال الأطفال هي التي شكّلت الدوائر في مجموعة الخطوط التي تشكِّلها رسوم هذا القبو، ولكنّني لم أقدر على إشراكهم في الحكاية هذه، أعني في هذا التفصيل من حكاية القبو، والحكايات الأخرى، تعجبني لفظة الأخرى، هذا يعني أنّ كائنات هنا تبقى معي، آخرين يحيطون بي، وهذا يعني أنّني سأكون بأمان. قبل هذه الأوقات، لم أكن مهتمّة ولا أعرف ما تغيّر في الأمر، لأنّ حسن عاد مرّتين، وبقي لدقائق، أتى ببعض الأغراض، وقال إنّه سيعود ليأخذنا إلى مكان آخر. في المرّة الثالثة عندما عاد، صحوت على صراخه، وكنت وحدي في الغرفة، وكان يحاول إيقاظي. لن أصف لك حسن ببساطة، فهو

حكاية لوحده، ويحتاج إلى تركيز عميق منّي. حكايته غير مفهومة. صوره تندسّ في رأسي، صور شعره، وبندقيّته، وثيابه، وعينيه، وذراعيه، الكاميرا المعلّقة في وسطه. كلُّ جزء من حسن حكاية، وقميصه كان لونه أزرق. هذا غريب! لأنّ اللون الأزرق كان مشعًّا، رغم الغبار، وهو مثل لون القلم الذي أكتب به. كنت أشعر بتوهُّجه، ليس لون قميصه الأزرق، بل عيناه كذلك، كان توهُّجهما يتراوح بين الاشتعال والنَوَسان، وهذا كان يجعل من قلبي دوائر متناثرة، هل فهمت كيف يمكنني شرح الأشياء؟ ببساطة أقول قلبي، ولا أفهم لِمَاذا تتداخل معاني الأشياء عندما تحضر حكاية حسن، أظنّ أنّني أفكّر فيه دائمًا، وهو يتحرّك تحت جلدي مثل الدم. هو وألوانه كلّها، وكان غاضبًا باستمرار، وغضبه كان يسكن في عقلي. يسيطر عليه منذ اللحظة التي حملني فيها وركض وسط دوّامة الغبار، ومررنا من أمام بيوت بنفسجيّة، أقول لك بنفسجيّة وعليك أن تصدّق، لأنّ جدران البيوت مع قذائف الغاز تحوّلت إلى ألوان غريبة، وكنت أشعر بالسعادة، رغم أنّني أُعيد عليك حكاية تدلّي الرأس ذلك مع البيوت البنفسجيّة، لكن عليّ الاعتراف لك عبر سلسلة الحكايات هذه أنّ هذه السعادة هي الوحيدة التي عرفتها. هناك ما يقفز في صدري من جهة اليسار.

الأشياء قبل شعورك بها تكون غير موجودة، لم أفهم ما يعني اكتشاف أنّ شيئًا ما في صدرك يتحرّك مثل أرنب! قرأت الكثير عن هذا، وعندما عرفته خفتُ! تخيّلته في رأسي، وأنا أقرأه، لكنّ معرفته أمر مختلف، تحيّرني تلك الأشياء بين الكتابة والرسوم والحقيقة. تحيّرني وتتركني خائفة.

أنا خائفة حقيقة، أنتظر هنا، وهذه الأفكار التي لا تتحوّل إلى رسوم ولا تخرج إلّا على شكل كلمات.

ليس صحيحًا أنّه على شكل أرنب تمامًا! ذلك الذي يقفز في صدري!

سأرسم سمكة لو تُرك الأمر لي، سمكة تقفز من بركة ماء ثم تهبط على الضفّة وتلهث! تفقد الماء! هكذا كان يقفز ذلك الإحساس. له خطوط السمكة وشكلها ولهاثها. لا أعرف ما إذا كان يجوز لي أن أقول سمكة تلهث! فاللهاث لا يخصّ الأسماك، لكنّني أفترض أنّك فهمت ما أعنيه!

وأنا أكتب لك عن حسن، وأراقب الذباب حولي، تخرج سمكة من عقلي، وتستقرّ في ضلوعي جهة اليسار. تخيّل أنّني أراقب الذباب من حولي، وأفكّر في أنّ هناك سمكة تقفز بين ضلوعي، وفجأة يخرج شكل سمكة بفراء أرنب من الضلوع ويستقرّ! الرسوم أفضل من الكلمات، لو كنت أملك ألواني، لجعلتك تفهمني بشكل أوضح. في الواقع، كنت فضّلت الصمت على الرسوم، وفضّلت النظر إليك مباشرة لتعرف ما أريده، لكنّ هذا مستحيل. علينا اختيار الأقلّ سوءًا، والآن هنا، أنتظر حسن، أختار الأقلّ سوءًا من جديد، وأمضي في كتابة معاني الأشياء من حولي، لأنّني فقدت جزءًا من سلسلة عقلي الطويلة التي تتكوّر في كوكبي الطينيّ.

لم أحدّد الزمن الذي بقينا فيه مع العائلات في القبو، أظنّ أنّني قلت لك عددهم من قبلُ. كنت أصحو وأعود إلى النوم،

وكانوا يرتِّبون الأشياء من حولي. كان هناك حساء العدس الساخن أيضًا. بقينا لأيّام نتناوله. حساء عدس ساخن وخبز.

أحاول أن أفهم وأنا أكتب لك. أتخيَّلك بقرنين طويلين، وعينين من نار، وأنت تقرأ كلماتي هذه، ثم أفكِّر في أنّك قد تكون لا شيء، قبل أن ينقلب العالم على رأسه، عندما أفلتُّ من يد أمّي. ربَّما العالم كان هكذا قبل أن أفلت من يد أمّي! ولكنّني أعرف العالم، وهو سرِّي الذي لا يعرفه أحد. سرِّي الذي كنت أعرف العالم من خلاله. لقد عرفت العالم الخارجيّ فعلاً، من خلال خرسي، ولك أن تندهش من هذا. لكنّني أؤكِّد لك أنّني عرفت العالم من خلال توقُّف عضلة لساني عن الحركة، ومن خلال الكتب. وكان هذا يكفيني، وكنت سعيدة. أظنّ أنّ حياتي بدأت بشكل معكوس، لأنّ الجنّة كانت هناك حيث الصمت، ثم فجأة حصل ما حصل.

قبل أن أصحو من جديد، كنت أفتح عينيّ أراقب ما يفعلون، تركني حسن معهم! من هم؟ غرباء كثر مرُّوا في حياتي هذه الأيّام. اختفت المرأتان، ورأيت مجموعة جديدة من الأشخاص، كانوا مثلي، مشرَّدين من بيوتهم، ولا نعرف عن بعضنا الكثير! كانت هناك امرأة تبكي، وتضع طفلها فوق رجليها، ولفّت مجموعة من الثياب على شكل وسادة. تغنِّي للطفل أغنية خافتة. حرف الهمزة يخرج من بين شفتيها بشكل متواصل أأأأأأأ... أأأأأأ... تنظر إلى نافذة القبو، وكان القصف مستمرًّا، والطفل ينظر في اتِّجاه النافذة مثلها، وتمسك بإصبعه

وتنحني عليه بهدوء. كان الطفل مستسلمًا. لا يتحرَّك، ولا يبكي! كنت أستيقظ على دويِّ القصف، وأشعر بجسدي يرتجف، بينما كان يغمض عينيه بسلام، وأمّه تمسك بأطراف أصابعه. كانا بعيدين منّا في زاوية القبو، وكانت الأمّ تسند ظهرها إلى رزم الكرتون الضخمة.

في تلك الصحوات الغريبة، كنت أفكّر في ساقَيْ أمّي! كانت المرأة تفرد رجليها، وتحوّلهما إلى مهد وتضع رأس الطفل عند قدميها، وتهدهده بحركة خفيفة، وهي تتمتم ببعض الأغاني، وكنت أظنّ لوهلة أنّني كنت ذلك الشيء الممدَّد فوق رجليها اللتين تحوَّلتا إلى سرير ضخم لي. وأمّي ترنِّم تلك الأغاني، أذكر أنّها بقيت حتى سنواتي الأربع تفعل الشيء نفسه، وهي تنظر ساهمة في النافذة وتهزّ رجليها بحركة متناسقة، لكنّني أذكره مثل شيء ليس لي، وفي مكان ما أجهله.

الأمّ التي تنظر إلى نافذة القبو، تحدِّق في قطعة السماء المتبقِّية! بالنسبة لي، لا توجد سماء في الخارج. هذه القطعة الصغيرة هي السماء التي أرفعها. وحتى يثبت العكس، فهذه الأرض لا سماء لها سوى تلك النافذة. حتى الألوان المحيطة بنا، ونحن محشورون في القبو، لم تكن ذات أهمِّيَّة، فأنا لم أرَ منها سوى تلك الألوان التي لا لون لها.

كنت أسترقّ النظر إلى حركة حسن بيننا، وهو يأتي بأشياء ويُخرجها، ثم وهو يقوم بتنظيف سلاحه. كانت ألوانًا تشبه أن تكون عيناك بين الإغماض السريع ثم التحديق المفاجئ في نقطة

سوداء. ربَّما يمكن القول إنّ الألوان كانت كلّها رماديّة، وكلّها بلون الإسمنت. استطعت تمييز اللون الأسود فقط. المرأتان كانتا تتوشّحان به، وسمعت رغبة المرأة الأخرى في الخروج، وهي تنظر إليّ بشفقة وعدائيّة! يبدو أنّني كنت المشكلة، وكان حسن يطلب منهما بهدوء أن تسكتا، لأنّ القذائف لا تتوقّف، وعليه أن يخرج. يأتي لوقت قصير ويرحل بسرعة.

المرّة الأخيرة التي فتحت فيها عينيّ ورغبت بشدّة في معاودة إطباقهما، قفزت وذُعرت! أحبّ تلك المشاعر الواضحة، لقد ذعرت فعلاً! وكان القبو فارغًا ومظلمًا. لكنّ ضوءًا شاحبًا تسرّب من السماء كان كافيًا لأرى الظلال. عرفت أنّني كنت وحدي، ثم لم ألمح هزّة قدمَيْ الأمّ ولم أسمع ترانيمها، لقد تركوني ثانية في القبو.

لن أصف لك شعوري تلك اللحظة. أنت لا تعرف شكل القبو؟ كنت وحدي! وأظنّ أنّني تبوّلت ثانية في ثيابي، وكنت جائعة.

كان هناك شيء من الصعب تفسيره وشرحه لك، إذ إنّني قبلاً لم أكن أضطرّ للشعور بما أحتاجه. كانت هناك سعادة خفيّة، لأنّني أشعر بأنّني جائعة، وهو شعور يخصّني أنا وحدي. لا أذكر

قبلاً أنّني أكلت بدافع الجوع. لو كانت لديّ مجموعة ألوان ومساطر وأوراق، لجعلتك تفهم أنّ الأمر يشبه خطًّا مستقيمًا بلا ألوان وليس أبيض. ولو أنّني كنت أفضّل رسم تلك الحالة بخطّ أبيض على ورق أسود.

كنت أشعر بحكّة بين فخذيّ، وهناك أشياء تدبّ فوق رجليّ، ولم أجرؤ على الحركة، لأنّ الصمت كان يتخلّله دويّ قذائف بعيدة، جلست وأسندت ظهري إلى الجدار، وبدأت الرؤية تتّسع. المكان كما هو. اختفى الناس فقط! لو فكّوا وثاقي قبل أن يذهبوا! كان هناك شيء ما يجعلني متيقّنة من عودة حسن.

قفزت على حافّة النافذة. وقفت على رؤوس أصابعي لأستطيع رؤية الشارع. لكن هذا لم يكن كافيًا.

كان عليّ جرّ صندوق من الكرتون أمام النافذة والدوس عليه، كان ممتلئًا بالأوراق ويكفي ارتفاعه لأعلو وأرى الشارع. ولم يكن هذا كافيًا أيضًا. لقد أبعدوا رزم الأوراق التي كانت تكفي لرؤية الشارع.

فتحت النافذة، لا بدّ أنّه الفجر، لأنّ السماء كانت تتحوّل إلى لون بنفسجيّ، وهو لوني المفضّل، ويشعرني أيضًا بالفرح. وليس عليّ تذكيرك كلّ مرّة بأنّه اللون الذي رأيته بينما كان رأسي يتدلّى من فوق كتف حسن، وهو اللون الذي قالوا لنا إنّه نتيجة الغاز السامّ الذي ألقته الطائرات، كما ردّد الناس الهاربون في تلك الليلة، ولن أُخفي عليك أنّني مندهشة من هذا، لأنّ اللون جميل جدًّا، ولا أفهم كيف يقتل اللون الناس!! في تلك

اللحظات وأنا أراقب لون السماء الشبيه بلون الموت، بكيت! لم أفهم ما يحصل لي، كانت حاجاتي واضحة. أخاف وأبكي وأشعر بالجوع، وما يحصل الآن لم يكن مفهومًا بالنسبة إليّ. لم أفكّر قبلاً في أنني أستطيع الشعور بهذه الأشياء. وكنت أعرف لِماذا أبكي. كنت أفهم هذا، وشعرت بأنّني بحاجة إلى تحريك عضلة لساني، ولم أفهم أيضًا لماذا يدور لساني في حلقي، وصرت أسمع صوت تأتأة غريبة، وهي ليست صراخًا، عندما مرّ قطّ بمحاذاة الشارع. لم أخف منه، وجدت عينيه أمام عينيّ، وكانت هناك حركة. . . حركة غريبة أمامي. لم أتبيّنها، لكنّ القطّ قفز أمامي، وهرب، وكان اللون البنفسجيّ يتحوّل إلى أزرق في السماء، كان الشارع خاليًا. استطعت مدّ رأسي. أتيت بصندوق ثانٍ من رزم الكرتون، وارتفعت قليلاً، وصار رأسي حرًّا في الهواء. كان الشارع طويلاً وضيّقًا، والبيوت مهدَّمة بالكامل، ورائحة صباح غريبة، الشارع مليء بالأوساخ وركام الأبنية. . . لا لون هنا. لون إسمنتيّ مع غبار أبيض ورماديّ. الشيء الذي يتحرّك صار الآن واضحًا، مقابل النافذة التي حرّرت رأسي منها. كان كلبًا هزيلاً، لونه قريب إلى الأصفر. ذيله بنّيّ. صار الضوء ساطعًا، والسماء لا غيوم فيها. زرقاء خالصة. أصف الألوان بدقّة، أظنّ أن عينيّ وُجدتا لمعرفة الألوان، وتفصيلها. الأزرق حينذاك في السماء كان كاملاً، بلا تدرّج، أزرق صافيًا وخالصًا، يتقاطع مع خطوط متكسّرة لما تبقّى من الأبنية المهدَّمة. الشارع مهجور. لا يوجد فيه أثر لكائن حيّ، سوى القطّ الذي هرب، والكلب الذي ينبش في الأكوام.

أتنفّس بصوت عالٍ. أسمع صوت تنفُّسي. عضلة لساني تتحرَّك داخل فمي، وأشعر بأنّني مستعدَّة للتحدُّث مع أيّ كائن حيّ. أريد أن أمشي. أفكِّر وأنا بين الأزرق والصباح، وعيناي ممتلئتان بالماء. إنّني أتذوّق طعم الملح في دموعي، وأفكِّر في حسن. وحده في عقلي، حتى صورة أمّي وأخي اختفت، وكلّ ما يُحيط بي. غاب كلُّ شيء. ربَّما أخذه الموت، كما فعل بأمّي وأخي، وكان هذا أمرًا محيِّرًا بالنسبة إليّ: أن يختفي البشر فجأة هكذا كأنّهم لم يكونوا. وهذا أمر فكَّرت فيه كثيرًا، وعرفت أن لا جدوى من التفكير في أيّ شيء، لأنّنا في النهاية لا نستطيع أن نبقى دائمًا موجودين، وهذا يعني أنّني لست مضطرَّة لمواصلة البقاء على قيد الحياة. هل سيتغيَّر الأمر؟ سيعفينا فقط من الشعور بما يحدث حولنا. هذا أمر سهل وبسيط جدًّا.

أسندت وجهي إلى حديد النافذة. كان الزجاج مهشَّمًا. أنا أحاول التحديق في ما يفعله الكلب الذي تبدو أضلاعه من تحت جلده، كلب هزيل جدًّا! وهو ينبش في الركام المقابل، والذي كان قبلاً بناء من أربع طبقات، وتحوَّل إلى جبل من الإسمنت، لا بدّ أنّ قذائف عدّة قد ضربته. هناك لحظات تطفو فيها حبيبات فوق جلدي، ثم تسبح تحته، أشعر بها من خلال إغماض عينيّ، وعندما أريد التأكُّد من وجودها ألمس جلدي بأصابعي، وكنت أشعر بملمسها، لكنّني لا أراها. في تلك اللحظة، وأنا ألمس جلدي، وأدير خدّي في اتّجاه قوائم الكلب الأربع وهو ينبش بين الركام، ويخلِّف وراءه غبارًا خفيفًا، لمحت ذلك الشيء الذي لم يتَّضح لي مباشرة، ولأنّني كنت أعتقد أنَّ الناس محقّون بعض

الشيء بوصفي بالغريبة، فقد حاولت ألّا أحيد نظري عن رأس الكلب الذي بدا قريبًا أكثر ممّا ينبغي، ويستطيع بقفزة أو اثنتين أن يكون مقابل وجهي، فتراجعت إلى الوراء وأدخلت رأسي تحت سقف القبو، ثم بدأ الهدير الحادّ للطائرة. توقّف الكلب. رفع رأسه. التفت حوله، وخفضتُ رأسي، ربّما عرف بوجودي، كان ينظر تلك النظرة الذليلة التي أعرفها، لكن لم يكن هنا بريق في عينيه. رأيته بوضوح. بدأت الشمس تنير المكان، وظهرت عظام أضلاعه وهزاله بشكل أوضح! وتحرّك داخل كومة الإسمنت، وظهر الغبار، وسمعت صوتًا غريبًا يتحرَّك من الجهة المقابلة. كان مواء قطَّة، فرّت مذعورة من أمامه، مرّت بسرعة. وقف وهو يتأمّلها ببلادة، ثم تابع النبش. يمكن أن تتخيّل المشهد كما يأتي: فتاة مثلي، تمدّ رأسها من نافذة، وعليّ وصف المشهد لك من الخارج وهو وصف صعب، لكنْ يمكننا رسم بناء، لأعرف أنّ البناء الذي فوقنا قد تهدَّم بالكامل، لكن هناك ركام أمامي، لكنّه ليس كبيرًا، كالركام المقابل، ما يسمح لي بإلقاء نظرة يمينًا ويسارًا، وهذا يعني أنّ هناك كلبًا في الجهة المقابلة وركامًا هائلاً، والكلب يهزّ ذيله ببطء، وينبش التراب، وتمرّ قطّتان هربتا بسرعة، ثم أسمع هدير طائرة، لكنّها غير موجودة في الورقة. من الممكن إضافة شكل طائرة. لم أرَ الطائرات التي تلقي القذائف من قبلُ مرّة، نظرت إلى السماء قبل أن ننتقل إلى هنا، وقالوا إنّ هذه طائرة. رسمها سهل، لكنْ تخيّل أنّ الفتاة صارت في الداخل، ما يعني أنّ اللحظة التي سأصفها لك تأتي. لا تفترض وجود رأس فتاة، ولا تنسَ أنّني الفتاة نفسها. أنزعُ غطاء رأسي،

وكان رأسي حرًا، ما يعني أنّني لن أستطيع إضافة بعض اللمسات على رأس الفتاة، لأنّ شعرها المسدل، كان تحت سقف القبو، حتى لو كان الشعر خارج سقف القبو، لن أرسمه بطريقة مميَّزة، لأنّه لا يوجد هواء، ولا يمكن رسم خصلات شعر متطايرة. كان الحرّ خانقًا منذ الصباح. وهنا عليّ أن أصف لك الكلب كما يمكن أن يظهر بدقّة أكثر، عدا عن هزاله، وحركته البطيئة وعينيه الذابلتين الذليلتين، كان مصرًّا على أن يُدخل فكّه في الركام. وعندما تقدَّم نحو الداخل اختفى نصف جسمه، ثم بدأ يجرّ شيئًا ما.

عندما سمعت هدير الطائرة من جديد، ثم دويّ القذيفة، لم يكن بعيدًا، لكنّني لم أر آثارها، نظر الكلب إلى السماء. وكنّا وحيديْن. أنا والكلب. وهناك، سقطت عليه أشعَة الشمس بالكامل، وقبل أن يركض ويختفي من المكان، لمحت ذلك الشيء الذي كان ينبشه من بين الركام، ولم يكن هذا رسمًا. كان كفًّا صغيرة، كفًّا حقيقيَّة. كانت بين فكّي الكلب الهزيل. ولونها لم يكن واضحًا، مثل لون الإسمنت. لكنّ الكلب، وهو يهرب من هدير الطائرة ودويّ القذائف، انحنى قليلاً وانزلق في الشارع، هو زقاق في الحقيقة، لأنّ المسافة الفاصلة بين القبو والبناء المقابل لم تكن تتجاوز الأمتار الثلاثة، هكذا أعتقد. ربّما أقلّ أو أكثر بقليل. لكن تلك الكفّ وفكّ الكلب وهو يستدير، خلال ثانية أو أكثر، مرّت من أمام وجهي، واستطعت رؤية الأصابع، لأنّه كان يحمل اليد تلك. . . أو الكفّ من الجهة التي تجعل الأصابع تبرز، بينما يقبض عليها بفكّيه من الجهة الأخرى، والتي لوّثت مقدّم فكّيه بالدم

والغبار. أنا رأيتها، كانت مجرّد ثوانٍ كما قلت لك، لكنّ الزمن توقّف في تلك اللحظة، وكنت أجفّف عرقي منذ دقائق بكمّي، وأسمع صوت مخاطي وهو يتحرّك وأنشم، فقد كان هناك سائل ينزل من أنفي! ولم أكن أظنّ أنّ بإمكاني التحديق في ذلك الفضول. راقبت الكلب بعد أن مددت رأسي عبر النافذة، ثم حاولت التحديق في كومة التراب أمام البناء. لم يبدُ أنّ هناك أثرا لشيء. كنت أمدّ رأسي، وغاب الكلب عن نظري، والأصابع بقيت بين فكّيه، وكان هدير الطائرة حادًّا وواضحًا. قبل أن أشعر بأيّ شيء، كان هناك هواء ثقيل يرميني على الأرض، وصوت غريب لم يُتح لي أن أفهم ما هو، ولا حتى أن أنظر، لأنّ سحابة من الغبار كانت تطفو فوقي، وأنا أتهاوى على الأرض. كنت أشعر بحرارة غريبة تخرج من عينيّ، نعست مباشرة بعد سحابة الغبار، ونمت.

أبو عبدو البغل

هل تعرف ما الكواكب السرِّيَّة؟ مثل قبّعة الاختفاء في الحكايات. لا يمكن أن يطالك أحد. . . تستطيع أن تجرِّبها! يُفترض أن تكون مهمَّة بالنسبة إليك، ولكن هذا يبقى في علم الغيب، لأنّ وصفاتي السحريّة التي أزوِّدك بها قد تحترق. . . أو أقرِّر تمزيقها. هذا يعتمد على عودة حسن الذي لا يعود!

كنت حينذاك أفتح عينيّ بصعوبة، اعتقدت أنّني في أحد كواكبي السرِّيَّة، ولم يصل إليه كائن بشريّ. منذ أيّام طويلة أنا هنا. ربَّما أكثر ممّا أعتقد، أو أقلّ. حتى إنّني لم أعد أعرف متى أنهيت آخر يوم أكلت فيه. الماء انتهى اليوم. المياه مقطوعة. لا يوجد ماء في الحصار. صنابير الماء التي رأيتها محاطة بالغبار بعد القصف، والصنبور الوحيد هنا والذي حاولت مرارًا أن أنفخ فيه، كان ناشفًا. الماء الوحيد المتاح في المرحاض، والذي يمكن التفكير في شربه كان أيضًا غير متوافر. في كوكبي السرِّيّ

الإجباريّ، يمكن أن أسمّيه هكذا، لأنّه لا يخصّني، ولم أبنه بنفسي، رغم أنّه يساوي فعل قبّعة الإخفاء نفسه، في ذلك الكوكب ـ القبو، كانت المياه حلمًا.

هناك كواكب سرّيّة عشت فيها دائمًا، مختلفة عن هذا القبو، وهو كوكبي السرّيّ الحاليّ، أذكر أنّني عيّنته كوكبًا سرّيًّا، عندما فتحت عينيّ وكان حسن يمسح وجهي وشعري بأصابعه ويزيل عنهما آثار الغبار. وكانت هناك، كما أخبرتك، أحجار عدّة نفذت من شبّاك القبو الذي لم يتحرّك إطاره الحديد.

أنا الآن ما زلت مقيّدة، هذا فأل خير. لن أتحرّك من مكاني، وسأبقى هنا قرب حسن، ولن أضيّعه كما ضيّعت أمّي وأخي عندما انفكّ وثاقي على الحاجز. حسن قال إنّه سيخرج لدقائق ويعود بعد سقوط القذيفة الأخيرة بالقرب من القبو. الدقائق صارت أيّامًا، وتلتها قذائف كثيرة، والباب لا يزال مغلقًا. قال إنّه سيغلقه لدقائق، سينظر أين سقطت القذيفة، ثم يعود، لكنّ القذائف تتالت، ولم يعد.

كم مرّ من الوقت؟ كان الزمن مجرّد درب طويلة محمولة على غيمة. الغابة والدرب محمولتان على كوكب، ولا أدري كيف تتحرّك الغيمة؟ هل تركض؟ هل تبقى مكانها، أم ترتفع في الأعلى كالطابة الجنّيّة؟ الزمن، منذ خروجي وأمّي لزيارة الستّ سعاد، بقي معلّقًا مثل مظلّة طائرة فوق الغيمة، وأنا أسبح في سماء ما، عالقة بين فراغ المظلّة والدرب الصغيرة في الغابة، وكلّ الكائنات محيطة بي، كائنات كوكبي السرّيّ الثاني التي

سأحدّثك عنها لاحقًا.

الزمن مثل الوقت الذي مرّ قبل أن أولد، كان لا شيء، والآن هو لا شيء. لا أفهمه. لا أعرفه. وأبقى معلّقة في نقطة ثابتة، مثل عقارب الساعة التي تدور بالاتّجاه المعاكس.

الأرض الآن مثل ساعة عملاقة، عندما سيأتي حسن، ستتحوّل إلى أغصان متشعّبة من عقارب الساعة الدقيقة، ثم فجأة تختفي الأغصان المتشعّبة في الغابة، وتعود ساعة عملاقة تتحوّل إلى غيمة ودرب ومظلّة.

تحت السرير، حيث بنيت كوكبي السرّيّ الأوّل، كان هناك لون أزرق، وتحت فراغ السرير، كان هناك فراش صغير آخر لي، أنا صنعته، لونه أزرق. الوسادة بيضاء. بيضاء بالمطلق. يبدو بياضها متوهّجًا، عندما يُحيط بها الأزرق والأسود، وكان الزمن يركب فوق رأسي على ظهر وحش عيناه ممتلئتان طيبة، عينان كبيرتان ومليئتان بالدموع. وكان الزمن أيضًا جنّيّة صغيرة، لها جناحا فراشة وذنب فأر، وترتدي بنطالاً قصيرًا مخطّطًا بالأحمر والأخضر، وكانت عينا الجنّيّة متوهّجتين بالأزرق. كان ذلك هو الزمن في كوكبي السرّيّ الأوّل، وكنت أنظر إليها، وأعرف أنّه لا يجوز تشبيه الزمن بجنّيّة، لأنّها تحمل صفة المؤنّث والزمن في اللغة هنا مذكّر! لكنّ ذلك غير مهمّ، فالألوان هي التي تحدّد معاني الحياة، وليس بالضرورة اتّباع الكلمات. كان هذا مختلفًا عن الزمن الذي رأيته هنا.

هناك أزمنة مختلفة، تتغيّر من كوكب سرّيٍّ إلى آخر، يبدو

كلُّ ما يحيط بي قابلاً للتغيير والاختلاف، وهو يخضع لشروط غريبة. اعتقدت قبلاً أنّ الزمن هو تلك الجنّيّة، وسترافقني ما حييت. هل الزمن هو نفسه عندما لا يكون معنًى لهروب الثواني في دروب غابة تحوم فوق رأسي؟ عادت أغصان أشجار الغابة تلك تلتفُ حولي من جديد، عندما كنت أفتح عينيّ ببطء وبصعوبة.

شرحت لك كلّ ذلك لأعود إلى تلك النقطة. قبل اختفاء حسن، عندما فتحت عينيّ، وكنت بالكاد أتنفّس، وكان حسن يقوم بتنظيفي. أطبقت عينيّ من جديد. خفت أن أجعله يبتعد عنّي، كان سيفعل هذا لو شعر بأنّني استيقظت. أؤكّد لك، أنّني كنت يقظة بما يكفي على غير عادتي، لأدعه يستمرّ في تنظيف وجهي وشعري وثيابي. رغبت في رؤية عينيه من جديد، لكنّني احتفظت بقوّتي، لأدعه يكمل ما يفعله. لم أكن أفكّر في أيّ أمر آخر، سوى تلك السعادة التي هبطت عليّ فجأة عندما يحضر. وفكّرت وأنا أحتفظ بذاكرتي بملمس أصابعه فوق خدّي، في أنّ تلك الأصابع هي ما سيجعلني أبقى على قيد الحياة، تعرف كم أنا معجبة بالأصابع. يبدو أنّه من الخطإ الحكم على طبيعة الأشياء من مظهرها الخارجيّ. كانت أصابعه تتحدّث مثل أصابعي، ورغبت في الضحك، لأنّني أخيرًا استطعت أن أكون حرَّة، حتى لو كان ذلك يعني اختفاء أمّي وأخي، ربّما يبدو لك هذا شعورًا جاحدًا، لكنّه كان الواقع.

تركته يمضي في ما يفعله، وأنا أفكّر في أنّ كوكبي السرّيّ

هذا لا يشبه أيًا من الكواكب التي عشت فيها. سأشرح لك الأمر، وأتمنّى ألّا يصيبك الملل، لأنّني أودّ أن تعرف ما حصل، وأودّ في حال بقيتُ على قيد الحياة، ألّا أنسى هذه اللحظات التي أكتبها، لأنّني لا أقدر على رسمها، وهي ستضيع في عقلي، كما ضاعت تفاصيل كثيرة من حياتي السابقة.

عليّ الاعتراف لك بأنّني أكتب بفرح، وتطيب لي هذه اللعبة التي ستسمح أنت بها، وأنت تفكّر في فتاة وحيدة مرميّة في قبو ومقيّدة، بينما الطائرات لا تتوقّف عن إلقاء القذائف، ستكون رحيمًا. . . أليس كذلك؟

كنت قد عشت في كواكب سرّيّة عدّة قبلاً. قسّمتها كما فعل «الأمير الصغير» في رحلته بين الكواكب. هو كانت له كواكبه وأنا لي كواكبي السرّيّة. وقد تعلّمت هذا الأمر منه. أنا أحفظ حواراته مع زهرته، ولا أخفيك أشعر بالقليل من الغضب منها!

إذًا. . . كان هناك كوكب سرّيٌّ تحت السرير، كما أخبرتك منذ قليل. السرير الذي كان بيتي، والكوكب السرّيُّ، هو المساحة الفارغة بين الصندوق الذي تخفيه أمّي تحت السرير، وما يتبقّى من المساحة المقابلة للجدار. كنت أحشر نفسي هناك، حيث أضع رسوماتي وكتبي ودفاتري، وهو كوكب كان يكفيني لأتمدّد فيه على بطني وأرسم. تنتهي حدود ذلك الكوكب بقوائم السرير الأربع، ولكن في الأسفل، تمتدُّ جذور الكوكب مع جذوري التي أشبكها معه لأعماق سحيقة، وكنت أرسم الجذور مرتبطة بمركز الأرض عبر نقطة في رأسي، كنت أفعل ذلك

مستعينة بـ «آليس» وقدرتها على تغيير حجمها، ومن خلال أحجامها المختلفة هناك، رسمتُها من جديد، وهي تتجوّل في بلاد العجائب، وقد كانت تشبه الستّ سعاد. . . وهناك، بدأت برسوم كليلة ودمنة، الكتاب التراثيّ المفضّل لديَّ، والذي كانوا يدرِّسونه قديمًا في المدارس، وبقي غلافه الأسمر موضوعًا في صندوقي.

هذا الكوكب حمل الرقم واحدًا، ولم يكن يعرف به أحد، وكنت أخفيه أثناء حضور أمّي وأخي. لوّنته مرّات عدّة، قبل أن تزيل أمّي آثار الألوان بالماء وموادِّ التنظيف الكريهة. وهناك في ذلك الكوكب، تعلّمت أن أكتب الحروف برموز ملوَّنة، لديَّ أكثر من ألف ورقة مكتوبة برسوم ملوَّنة، لا تزال هناك. كتبت كلّ ما أردت قوله برسوم ملوَّنة.

يحدِّد كوكبي الفراغ، رغم أنّ ظاهره محدَّد بين قوائم السرير، وصندوق أسراري الذي تخلّيت عنه، بعد أن خرَّبته أمّي واضطرّت لوضع بعض الملاءات فيه، إلّا أنّ جانب الصندوق بقي لي، ولوَّنته بألوان النار، فأزالت أمّي الألوان وصرخت وعلا صياحها. كانت من المرّات النادرة التي تغضب فيها. وفي المرَّة الثانية، لوَّنته بزخارف من رسم نقلته من مجلّد الستّ سعاد الضخم، كان عن تيجان أعمدة، والزخارف جزءٌ من تاج عمود في أحد قصور إشبيلية، لا بدّ أنّك تعرفها؟ احتفظت أمّي بالرسم ولم تنظِّف الصندوق، وبقيتُ لساعات عندما اكتشفت الأمر وهي تقول لي إنّها حقيقيّة. . . إنّها حقيقيّة. وقرصني أخي في خدّي فرحًا، وأتى بمزيد من الألوان، عندما رأى الصندوق، وأنا

أُعجبت بلمعان عينيه وهو ينظر في رسومي، والضحكة الواسعة التي رسمها وجهه وهو يمرِّر أصابعه على الصندوق والرسوم. كانت عيناه تتوسّعان وتتوسّعان... بعد ذلك، كنت أعيد رسم بعض هذه الزخارف وأرميها في زوايا الغرفة التي نعيش فيها، لأرى عينيْ أخي وهي تكبر وتكبر وتتحوّل إلى بالونين!

أظنّ أنّ الصندوق لا يزال في مكانه، وهو يشكِّل أحد حدود كوكبي السرّيّ الأوّل. كان العالم جميلاً وملوَّنًا هناك... في الفراغ المربَّع الذي لا يتجاوز قوائم السرير الأربع. كنت أحمل هذا العالم بين أصابعي، ولا حاجة لي لرفع رأسي حتى! لأنّ رأسي كان يعلو عن جسدي ويطير. يرى كلّ شيء ثم يعود إلى مكانه، وأصابعي تلامس السماء ثم تعود تحت السرير. أرسم بعينيَّ، وفي بعض الأحيان، كنت لا أحتاج سوى التحوُّل إلى قطّ «آليس». القطُّ المبتسم. فأغمض عينيّ، وتطير الأشياء إليّ، وتبقى قربي في فراغ الكوكب السرِّيِّ الأوّل.

هل تعرف كيف تمَّ طردي منها؟

قرّرت أمّي أن تأتي ببعض الوسائد الجديدة، لكنّها لم تستطع رمي القديمة، هي واحدة من عاداتها. لا ترمي الأشياء القديمة خوفًا من الحاجة إليها. بيتنا كان عبارة عن مجموعة من الكراكيب التي لا نحتاجها. حشرت أمّي الوسائد القديمة في تلك الزاوية المتبقِّية تحت السرير، ولم تفلح كلُّ محاولاتي لرمي الوسائد، بالنجاح. أمّي أصرّت على الاحتفاظ بها حتى لو كان عليها رميي خارج البيت، ولم تشرح لي، طردتني من تحت السرير.

كانت من المرَّات القليلة التي حشرت فيها نفسي هناك، في محاولة لاستعادة مكاني الأوَّل، عندما كنَّا ننظِّف البيت وترمي أمّي بكلٍّ أشيائنا إلى الخارج، وتفرك أرض غرفتنا بروائح المنظِّفات الكريهة، لكنّي وأنا ألعب برغوة المنظِّفات وفقّاعات الصابون تحت السرير، لم أجد أيَّ أثر يدلّ عليها، كانت اختفت تمامًا، رغم أنّ الوسائد لم تكن هناك.

رسمتها بعد ذلك، بعد أن فقدتها. ووضعت عنوان كوكبي السرِّيّ الأوّل، حدث هذا بعد سنوات، وسمَّيته في الرسم «فراغ ملوَّن» وقد أُعجبتُ جدًّا بالعنوان، وضحكت معه. أعجبني أنّه يمكن التفكير في أنّ الفراغ ملوَّن، وهو التعريف الجديد الذي أطلقته على قوس قزح، وحاولت استرداد ذاكرتي لأعرف متى أطلقت عليها هذا الاسم وفشلت كالعادة، لكنّني وضعت الرسم وحكاية الفراغ الملوَّن بين أوراقي الخاصَّة، والتي كما تعرف لا تزال حتى اللحظة مخبَّأة في الصندوق داخل بيتنا. سأسمِّيه بيتنا حتى تفرِّق بينه وبين كواكبي السرِّيَّة، فهو في الواقع وكما أخبرتك سابقًا: بيتنا... مجرّد غرفة واحدة.

وبقي كوكبي «فراغ ملوَّن»، قوس القزح هذا، واحدًا من أهمّ أسراري حتى انتقلت إلى كوكبي السرّيّ الثاني، داخل مكتبة الستّ سعاد. مكتبة المدرسة التي كانت عبارة عن غرفة واسعة، وبضعة أصص من نباتات مختلفة. كانت «الستّ» سعاد تزيِّن بها النافذة. وعدا عن ذلك، فالمكتبة عبارة عن كتب ورفوف تصطفّ حول الجدران ومن كلّ الاتّجاهات. في وسط الغرفة، هناك

صورة كبيرة لرئيس البلد، إلى جانبها صورة توازيها حجمًا لأبيه، وكانت لهاتين الصورتين نسخ موزَّعة في كلّ مكان من المدرسة، وفي الطرقات أيضًا، وعلى اللوحات الإعلانيّة الكبيرة في ساحات دمشق، وعلى جدران البيوت، في كلٍّ مكان كنت أذهب إليه كانت صور الرئيس ووالده. أخي يقول وتماثيل الوالد تتوزّع في كلٍّ مناطق البلاد، لكنّني لم أشاهدها أبدًا.

في المكتبة، كانت الصورتان غطّتا ما تبقّى من الجدار، من آخر رفّ الكتب وحتى السقف. في غرفة مديرة المدرسة التي دخلت إليها مرّة واحدة، وكنت مع أمّي حين كانت تتعرّض لتوبيخ من المديرة، لأنّها تأتي بي إلى المدرسة. رأيت الصورتين أيضًا. كانتا تحتلّان جدارًا كاملاً، صورتان ضخمتان للرئيس ووالده. أمّي قالت إنّ والد الرئيس، كان رئيسًا لنا... وكانت الصورتان مذهّبتين، نظيفتين ولامعتين، وكانتا تبدوان ضخمتين، أكثر ممّا تبدوان عليه في التلفزيون.

قبل أن أنقطع عن الذهاب إلى المدرسة، أُضيفت رفوف عدّة من الأعلى لاستيعاب المزيد من الكتب، ما عدا جدار الصور. تلك الغرفة، لم تكن لي وحدي، فهي متاحة للطالبات. كانت لي أحيانًا. ثم حملتها في رأسي، وصارت جزءًا من كوكب سرّيٍّ آخر داخل رأسي. وعدا عن الأوقات التي تجلس الستّ سعاد فيها معي وتعلّمني الكتابة والقراءة عندما كنت في الخامسة، فقد بقيت وحدي هناك. كانت تقفل الباب، عندما تضطرّ للخروج. وهكذا في فترات الدوام المدرسيّ كنت... ملكة... وكان

ينتابني ذلك الشعور... الذي يجعل صدرك ينتفخ... وتتنفّس الهواء، كأنّك ستموت بعد دقائق... ثم تبلع بطنك... وتطلق ضحكة... ضحكة عالية...

في ذلك الكوكب السرّيّ الذي يتحوّل إلى مسرح، واسع نسيت يدي المربوطة. المسرح نصف دائرة داخل المكتبة، تنزل من رفوفها الكائنات وتتحوّل الرفوف إلى خشبات مسرح. لم أعرف المسرح. لكنّني شاهدته على التلفزيون، وقرأت عنه في الكتب. الكائنات تتوزّع حولي من كلّ الجهات، وتشكّل صفًا دائريًا. تنسلّ من الجدران المحيطة بي. تنزل من الرفوف بخفّة. لا أعرف تحديدًا متى ظهرت بدقّة، لكنّي أؤكّد لك، أنّها كانت تتحلّق على شكل صفوف منحنية مدوَّرة حالما تغلق الستّ سعاد باب المكتبة، وتختفي مع ظهورها، ثم تبدأ الصفوف تكبر وتزداد حتى يكتظّ المكان بها، وصارت تجلس فوق الرفوف، ومنها ما يبقى طائرًا في الهواء. تحوّلت هي نفسها إلى رفوف أمام رفوف المكتبة، وحافظت على ثباتها بانتظام. كانت تشكّل صفوفها نصف دائرة حولي... دائرة صغيرة، وحولها دائرة أكبر منها، وكلّ دائرة داخل دائرة. تتكوّم فوق بعضها بعضًا مثل صفوف حلزونيّة، لكنّها منتظمة. تخرج من الأوراق، تنتظر بكامل عددها، وعندما تنتهي من حديثها معي، تعود إلى الكتب. عليّ الاعتراف بأنّها كانت مهذّبة ولم يقاطع واحدها الآخر. كلّ واحد منها يوجّه حديثه إليّ، تنصت البقيّة. وهكذا... وهكذا...

كان هناك اتّفاق سرّيّ بيننا. هي تشبهني، لا تحرّك عضلات

ألسنتها، ولم تكن بحاجة إلى ذلك.

أحاول استعادة تفاصيل المكتبة وهي كوكبي السرّيّ الثاني. أشكّ في قدرتي على التركيز أكثر، كانت تزدحم بحيتان بِيض طائرة، وبنجوم ذات لون برتقاليّ تتحرّك بين الصفوف، وشخصيّات تختفي من وقت لآخر، ورأيت دروبًا في غابات تخرج من بين الصفوف وصهيل خيول يأتي معها، وضجيج، وكنت أسير في الدرب الطويلة، بين الشخصيّات التي تتوزّع على جانبيْ الدرب في الغابة، وكانت تظهر كائنات غريبة حولي، وأسمع أصواتها في رأسي. حيتان بأقدام نعامة، وقرد برأس زرافة، وأرنب بريش نعام، أمّا الجمل، فقد نبت له جناحان صغيران، مثل جناحَي وطواط عند رقبته... وكانت الدروب تحملني، لم أكن أمشي، كنت أبقى واقفة في مكاني، تمسكني بعض النباتات المتدلّية من أغصان الأشجار، وتطوف بي العالم كلّه. في المكتبة، أسبح بين السماء وأعماق البحار. لون البحر لم يكن أزرق، لم أرَ البحر في حياتي، ولم أعرف ما إذا كان لونه في الأعماق أزرق. يبدو في التلفزيون أزرق، في القصص المصوَّرة أيضًا. لكنّني في كوكبي السرّيّ ذاك، رأيته شفّافًا. أشعر بالماء يحيط بي. أتنفّس بلا فقّاعات. الدروب كثيرة وتتغيّر من يوم إلى آخر. ينقلني فيها مع أذرع «البماتان»، الفرس الميمون الذي نقل آدم في الجنّة، وتعلّقتُ بريش طائر الجنّة الطاووس وأنا أعبر الهضاب والجبال بقفزة، وكنت أغلقها بيدي، وأشمّ روائح كريهة بعض الأحيان، ولم يكن يعجبني هذا، وكانت الصحراء هناك بعد كلّ هذا... رجال سُمر البشرة وقوافل جمال...

وأشجار نخيل. . . كانت تختلط عليّ صور الواحات، وأحيانًا تخرج عليّ بأشكال رسوم الكرتون. . . وواحات السندباد. . .

في كوكبي السرّيّ الثاني، صرنا أصدقاء، أنا و«الأمير الصغير». تعلَّمت منه، كيف أبني كواكبي، كما فعل هو، وكان «عليّ بناء الكواكب»، هو قال لي هذه الجملة، وهو يحاول الابتعاد من زحام الصفوف، وأنا فكَّرت بالكواكب! لقد عشت في كواكبي، هو فقط أعطاني الإشارات! وبقينا أصحابًا. ربَّما أكثر من أصحاب.

هذا الكوكب لم يختفِ. انتقل إلى رأسي، وهناك تعلّمت قراءة الكتب. كانت الستّ سعاد تُجلسني على الطاولة، وتأتي بأحد الكراسي المحشورة بين زوايا الرفوف، ثم تضع يدها وراء ظهري، وتحرّكه حتى يصير مستقيمًا. كانت تقول، إنّه يجب أن أكون بكامل الاستعداد لفعل القراءة، وترفض أن أجعل ظهري منحنيًا وأنا أقلِّب الصفحات، ثم كانت تنحني فوقي، وتركع على ركبتيها جانبي وهي تهجِّئ الأحرف معي، ثم تجعلني أمسك قلمًا وأشير إلى الكلمات التي أقرأها، وأمسكتْ بيدي، وقالت: اكتبي، وأنا رفضت إمساك القلم. وعندما جاءت المرّة الثانية بأقلام ملوّنة، أمسكتُها وصرت أكتب الجُمل على شكل كلمات متقطِّعة، وأنا أُعيدها، ثم جعلتني أحفظ الحكاية. وكان ذلك مدهشًا، لأنّ عمليّة القراءة مع عمليّة الكتابة كانت تتحوّل إلى نغمات متقطِّعة تخرج على شكل فحيح. . . كانت مجرّد حركات شفاه. . . وكنت أرسمها بشكل مبالغ به، وكانت تضحك وهي

تراقبني، وتردِّد جملتها المعتادة: أنتِ عبقريّة، لديك قلب فنّانة!

إضافة إلى كوكب المكتبة، وتحت سريري، كان هناك كوكب سرّيٌّ في رأسي. هذا الكوكب رسمته مرّات عدّة، وهو دائريٌّ الشكل، سمّيته كوكب الطين، وضعت فيه بعض الأوراق، غير المفهومة للآخرين، والتي لا يُتاح لي رسمها أمامهم. يبقى ذلك الكوكب مغلقًا، وفيه أوراق لا يلمسها ولا يراها أحد، وهذا مُطمئن! ذلك الكوكب صعب الاقتحام. أمدّ يدي إلى رأسي وأفتحه متى أشاء، ثم كان يكفي أن أغمض عينيّ ليكبر الكوكب ويتحوّل إلى ساحة واسعة بلا حدود. كان العالم حينذاك يأتي إلى كوكبي، ولست أنا من تجول العالم كما في كواكبي السابقة في المكتبة التي تتحوّل إلى نقطة انطلاق لرحلات رأسي...

لكلٍّ كوكب من كواكبي السرّيّة أهمّيّته، لكن كوكب الطين، له أهمّيّة استثنائيّة. هذا الكوكب لن يختفي حتى أختفي. هذا جيّد. لوني مثل لون الطين، وإن كان بدرجات متفاوتة. لكنّ أصله طين، وهو أحد ألواني المفضّلة. نحن ألعاب من طين، ألعاب صغيرة سريعة الكسر والتفتُّت، إذ يكفي خدش بسيط في أجسادنا لنتحوّل إلى غبار. وتتقطّع أعضاؤنا ببساطة. أنت لا تصدّق؟ استطعت التحقّق من هذا عندما قُصف بيت أمّ سعيد وسقطت القذيفة قربها، وتحوّلت إلى تمثال نصفيٍّ من الطين. تمثال بلا ساقين. لعبة بلا ساقين. كانت أمّ سعيد تمشي على قدمين، وكانت تبدو مثل جبل، ومن المستحيل التفكير في أنّ معجزة قادرة على إزالة هذا الجبل، تحوّلت أمّ سعيد إلى لعبة

طينيّة بلا ساقين، خلال ثوانٍ، وكانت عيناها مفتوحتين بطريقة غريبة، كأنّها تحدّق في مكان بعيد، ويداها منفرجتان، وثوبها انكشف عن نصفها العاري الذي سرعان ما تمّ ستره من قبل الرجال، ولم أرَ التفاصيل الدقيقة لنهاية الجزء العلويّ الذي قسّم إلى جزأين. أخمّن أنّه عبارة عن أغصان ملتفّة من الأوردة الحمر المغطّاة بالطين، والتي تفتّتت لاحقًا. باقي أجساد الأطفال والأمّهات لم أره، كانت الأجساد قد توزّعت في كلّ مكان، وربّما تحوّلت إلى غبار. القذيفة سقطت فوقهم تمامًا. أجسادهم الطينيّة اختفت، تقول أمّي إنّ الأجساد تأكلها الديدان، وإنّ عذاب القبر الذي يعدنا الله به عظيم، ولكنّني أشعر بغرابة، لأنّ نصف أمّ سعيد تحوّل إلى غبار، والنصف الثاني ستأكله الديدان. هل تجد فرقًا في هذا؟ الفرق أنّ الديدان ستعيش زمنًا قصيرًا، ثم هي نفسها ستتحوّل إلى غبار. لو سمعت أمّي بهذا الكلام لصفعتني. مع ذلك، أنا أعرف أنّ كوكبي السرّيّ في رأسي. داخل تلافيفه، والتي لم أرها حقيقة بل شاهدت رسمها في كتاب العلوم في المدرسة. هي مجرّد غرفة طينيّة على شكل حفرة، وفيها كانت أوراقي وألواني ورسوماتي، والتي كانت على شكل بصمات أصابع طويلة نحيلة باللون الأحمر. لون المخلوقات داخل كوكب الطين كان غير محدّد مثل أشكال الفنّ الانطباعيّ، مجرّد ظلال ماء. . . تتداخل العيون والأطراف، والرؤوس. حتى خصلات الشعر. . . تسبح في الماء، ولا تغادر. هذه المخلوقات لم تكبر أبدًا داخل كوكبي، وكان لكلّ واحد من هذه الأشكال اسم ووظيفة. كلّ هذا في رأسي، وقد أعجبت بأن تكون هناك دوائر

داخل دوائر، داخل دوائر في رأسي. حكايات داخل حكايات. حكايات تتقاطع مع حكايات!

بعد أن صار لي كوكب سرّيّ أتحسّسه الآن. سمّيته كوكبي السرّيّ الرابع، وهو لا يزال معي، رغم أنّه الآن هائم وضائع منّي كلّيًّا، ولا طاقة لي على التركيز كفاية لأصفه لك.

كوكبي السرّيّ الواقعيّ والأخير، سأخبرك عنه مع قصّة الحصار، رغم أنّ قصّة الحصار داخل حكاية الشاطر حسن، وداخل حكاية الولدين وعربة الأعشاب. لا بأس أن نخرج من حكايتين بحكاية، هذا سيكون أفضل. في عالم الألوان يحدث هذا، يخرج لون من لونين، لكنّ اللون الجديد يجمع صفات اللونين السابقين. هنا سنجرّب في عالم الكلمات. هذا لن يضرّ، ما دام الزمن عاد وتحوّل إلى درب غابة فوق غيمة.

لا بأس أن تكون الحكايات دوائر متقاطعة المركز، وليست فقط دوائر تخرج من دوائر، ثم تنفصل عنها وتطير في سماء أبعد.

اللون لم يكن بنفسجيًا بالكامل. أعني تلك الحادثة التي أُعيد تكرارها عليك، عندما حملني حسن، وكان رأسي يتدلّى على ظهره. وهو الأمر الذي أخبرتك به منذ قليل عن الحكايات عندما تتحوّل إلى دوائر متقاطعة المركز، تعلّمت هذا من مزج الألوان. وتلك الحكاية، عندما تدلّى رأسي وكنت بين الصحو واليقظة، لا تزال تعيد نفسها بدوائر جديدة لها المركز ذاته!

قلت لك لم يكن بنفسجيًا تمامًا، اللون كان يشبه لون المرأة الطائرة في إحدى اللوحات التي احتوتها مجموعة الستّ سعاد، هل تعرف تلك اللوحة؟ امرأة يحملها رجل وتطير فوق مدينة. ربّما كان اسم الفنّان شاغال. لست متأكّدة. حدّثتني عن حياته الستّ سعاد، وعن تاريخ الفنّ، وكانت مولعة بلوحات «شاغال»، وقضت ساعات وهي تفصّل في شرح كلّ لوحات المجلّدات التي أحتفظ بها، قالت لي إنّها جمعتها من أسفارها، وهي تملك منها

الكثير. كنت أتركها تتحدَّث، وأغمض عينيّ وأفكِّر في معنى كلماتها وكيف يمكن أن تكون الكلمات ألوانًا! وكانت تلك اللوحة في أحد المجلَّدات التي خبّأتها في صندوقي، ليست تلك اللوحة فقط، بل لوحات أخرى للرسّام نفسه، أظنّ أنّه لو قُدِّر لي أن أكون رسّامة، فسوف أرسم كما يرسم هذا الرجل. هو يفكّر في الألوان كما أفكِّر فيها! قالت أمّي إنّ الستّ سعاد تفعل ذلك بدافع الشفقة، وكانت غاضبة من تراكم هذه المجلّدات في بيتنا. كنت أشعر بأنّني أملك كنزًا عبر لوحة المرأة الطائرة مع يد رجل! وكانت تأتيني في المنام! ورسمتُ اللوحة نفسها، رسمتها مرَّات ومرَّات، كانت بحجم صغير. وقدَّمت إحداها هديّة للستّ سعاد، وقد علّقتها على أحد جدران بيتها، بعد أن أحاطتها بإطار خشب ذي لون بنِّيّ. إذا كنتَ تعرف تلك اللوحة، فستفهم ما أعنيه ولماذا أخبرك عنها الآن! كنت معلّقة مع حسن مثل تلك اللوحة في تلك اللحظة البنفسجيّة. الفرق أنّ الرجل كان يطير بالمرأة فوق المدينة، ويرتدي الأخضر، والمرأة تنتعل حذاء مدبّبًا، وترتدي فستانًا أزرق، ورأسها لا يتدلّى، كان رأسها يطير! وإحدى يديها تمتدّ إلى الأمام كأنّهما يسبحان ضمن حركة موحّدة. الستّ سعاد قالت إنّهما يطيران، ولم أعلّق، ولا حتى بحركة من رأسي أمامها، لكنّني قلت في سرّي، إنّهما يسبحان في الهواء فوق المدينة.

أنا وحسن كنّا نسبح أيضًا وسط روائح الفقّاعات الكريهة. رأسي كان متدلّيًا ويداي. اللون الأزرق البنفسجيّ، كان هو نفسه لون اللوحة.

هل تعرف حسن؟ ربّما تعرّفت إليه، أو كنت أحد أصدقائه. هو واحد من أبناء الغوطة، هكذا قال لي. لم أعرف ما إذا كان من «دوما» حيث قبوي «كوكبي السرّيّ الأخير»، لكنّه قال إنّه من شباب الغوطة، وأنا سمّيته «الشاطر حسن». تعجبني تلك الحكاية، قرأتها مرّات عدّة، وفي كلّ مرّة كانت حكاية مختلفة، كلّ حكاية صنعت حسن مختلفًا. لكنّ حسن في كلّ الحكايات كان المنقذ والمخلّص. أكان أميرًا أو فقيرًا... كان يبدّل خارجه فقط! يكفي أن تبدّل ثيابك لتتغيّر... هل تعرف حكاية «الأمير والفقير». أجدها مضحكة... كيف تبدّل الفقير بالأمير. هكذا قالت الحكاية. عرفت مؤخّرًا أنّني من أولئك الذين يسمّونهم فقراء. أفكّر لو استبدلت قدميّ بقدميْ فتاة أخرى، ما الذي كان سيحصل؟ هل سيختلف موتنا؟

سيكون جميلاً لو أنّ لكلّ موت لونه. الموت قبّعة إخفاء اللون. أظنّ أنّه من الأفضل تحويل مناسبات الحداد إلى مناسبات لونيّة تخصّ كلّ ميّت، وربّما يمكن تلوين شواهد القبو بلون الميّت الخاصّ، والذي من الممكن أن يقرّره في حياته. هذا صعب، إذ يتعيّن على كلّ إنسان التفكير في لون خاصّ به، خصوصًا أنّ من يضع قوانين الألوان غير معروف، ونحن نستيقظ فجأة ونجدها أمامنا تخبرنا بما تعنيه. من يقرّر المعاني؟ هذا مزعج بالنسبة إليّ! لكنّه يساعدني على التفكير في اللون الخاصّ بالشاطر حسن. ما اللون المناسب له؟ لو ظهرت الألوان فجأة بين يديّ الآن كي أرسمه، أيّ لون سيكون هو؟ حسن يحتاج إلى رسم مباشر بالألوان، لا يحتاج قلم رصاص وممحاة، له فقط

ألواني التي تنتظر تحت السرير أن أعود إليها. سأجد اللون الخاصَّ بالشاطر حسن عندما أملك الألوان. سيكون مزيجًا من ألواني الخاصَّة التي أحتفظ بها في أوراقي السرِّيَّة. ألوان لم تعرفها أنت. أحاول من خلالها معرفة لوني الخاصّ، لا بدّ أنّني سأكتشفه يومًا ما. ربَّما عندما أكبر. هذا سيحدث. سأخرج من هنا، وأذهب إلى ألواني.

هناك صورتان لحسن في رأسي، غابت كلُّ صوره القليلة من ذاكرتي. صورته وهو يحملني ويركض بينما الفقّاعات الكريهة تسقط من السماء. وكنت ألمح اللون البنفسجيّ الأزرق على الجدران، وحسن يصرخ بالناس ليبتعدوا من مكان القصف. وصورته الأخيرة وهو يهذي ويقفز في القبو بعد أن غادروا جميعًا وبقيت وحدي. وكان ينظر إليّ تلك النظرة التي أعرفها وتشبه سيخًا من النار يسحب قلبك من ضلوعك ثم يرميك أرضًا، وكنت حينذاك أقف بجوار النافذة، وأنظر إلى الخطّ الطولانيّ الظاهر من السماء بين الأبنية، لم يكن هذا متاحًا لولا السبب الذي جعل الفضاء أكثر اتّساعًا، ويومًا عن يوم كانت تظهر قطع السماء الطولانيّة وتختفي الأبنية، وكان حسن يلملم بعض الأشياء من أرض القبو، ويصرخ بي، لأكون جاهزة للرحيل. قال إنّه سيتركني عند عائلة من أقربائه، ولن يكون باستطاعته الاهتمام بي بشكل يوميّ، لكنّني أمانة سعد عنده! قال ذلك وهو ينظر إليّ بين حركة وأخرى بغضب.

وهو يعني أخي، أخي كان اسمه سعد، لم أخبرك قبلاً

بالأمر، لكنّه كرّر هذه الجملة. وكان القصف يقترب. وفكّرت للمرّة الأولى في حياتي، في أنّني سأعيش مثل باقي البنات. وأنّني أريد أن أبقى هنا معه، مع هذا الشاطر حسن. وكان هذا يكفيني. وفكّرت أيضًا، في أنّني سأتوقّف عن المشي. وأنّني أستطيع السيطرة على قدميّ، وأنّني أريد التوقُّف قربه. أردت أن أخبره بهذا، وكانت عضلة لساني تتحرّك، وكنت قادرة، أقسم بوجه أمّي! ولم يتح لي الفرصة لأكلّمه وأخبره بأنّه يستطيع فكّ يدي وتركي أقف إلى جانبه. لكنّه كان غاضبًا، ونحن نسمع دويّ القصف، وتيبّس جسدي، فجلست على الحصير البلاستيك، وراقبته.

على كتفه اليسرى كاميرا معلّقة، حجمها متوسّط. على الكتف الأخرى سلاحه. قال إنّنا سنخرج، ويجب أن أغطّي رأسي. حينذاك نظرت إليه، لم أخش التحديق فيه. حفظت وجهه، وبقينا هكذا معلّقين، كنّا أنا وهو معلّقين مربوطين بحبل لامرئيّ يشدّنا من طرفيْ العالم.

اقترب حسن وصار مواجهًا لي، وكان شعري مفرودًا على جسدي، أنا بقيت واقفة بثبات أحدّق فيه، ولم أعرف ما عليّ فعله، إلّا أنّني كنت أعلو في الهواء، وأردت أن أدعو الله كي يبقى إلى جانبي، وعرفت حينذاك أنّ الله رحيم، ربّما هذا ما قصدته أمّي عندما قالت إنّ الله رحيم، الشاطر حسن كان رحمة الله. ولولا تلك اللحظة، لما استطعت الكتابة إليكَ الآن.

مددت يدي له، ليفكّ ربطة الحبل، لكنّه نظر إليّ مذهولاً.

لم يفكّ حسن ربطة الحبل، وكنت على يقين إضافي أنّه لو فكّها لبقيت قربه. ظلّ يحدّق فيّ لدقائق، وعيناه تزدادان احمرارًا، والقصف يشتدّ. كنت أمدّ يدي إليه، وكان ينظر في عينيّ. طلب منّي الهدوء، ثم شدَّ الحبل بأسنانه، وهززت رأسي بأنّني لا أريد، وأشار إلى يده، وأجبته بهزّة عنيفة من رأسي، ثم أعدت حركة الرأس مرّات عدّة، فابتعد صارخًا، وبدأ يهذي. بقي لوقت طويل يحكي، ولم أفهم الكثير، لأنّه كان يسبّ ويشتم ويلعن، ويتحدّث بصوت منخفض مع نفسه، لكنّني فهمت من بعض الجمل أنّه سيعود من أجلي، وأنّني سأكون في حمايته، وأنّني لن أخشى شيئًا.

جلس وأزاح الكيس الأسود الذي كان يحمله، وضعه في الزاوية، وشبك يديه حول رأسه وأشعل سيجارة، كان يدخّن وقتذاك. يُدخل عقب السيجارة بين شفتيه كأنّه يريد عصره، ثم ينفضها بنزق، وشفتاه ترتجفان.

القصف لم يتوقّف، ثم صارت هناك أزمنة متباعدة بين قذيفة وأخرى، ولم ينظر حسن إليّ، حتى أنهى سيجارته ثم رماها بعيدًا. كنت أقف أمامه مباشرة. تحرّك جسده كلّه بالكامل مع حركة السيجارة التي غابت وراء رزم الأوراق، ومرّ فأر بين الأكياس، واختفى فجأة قبل أن يطلق عليه النار!

لقد أطلق حسن النار من بندقيّته!

الصوت كان مفاجئًا. لكنّه حصل بشكل طبيعيّ، وكنت أظنّ قبلاً أنّني سأصاب بالطرش عندما أسمع صوت إطلاق الرصاص

القريب. لكنّ ذلك مرّ طبيعيًا. كانت الرصاصة أمامي، وبقيت في مكاني ولم أتحرّك. أصابعي صارت تتحرّك، وقدماي قرّرتا المشي، أمشي في مكاني. ورأسي يرتجف. أردت صعود الدرج، فأمسكني حسن وأعادني إلى مكاني، وهو يربّت على شعري، ويعتذر، ثم ضمّني إليه. وكان لا يزال يرتجف. صوت الرصاصة لا يزال يرنّ في أذنيّ. شفتاه فقط ترتجفان، وتخرج الحروف من فمه بصعوبة. جلس قربي، وتابع حديثه. هدأتُ، رغم أنّ قدميّ تؤلمانني، وأردت أن أمشي، وهو استمرّ في حديث التأتأة. قال إنّه عاد لينقذني، وكنت أنظر في عينيه، وهو يطبقهما. ثم وضعت يدي فوق يده، لم ينتزعها. بقي على حاله، شعرت بأنّني أنمو وأكبر، ورأسي يرتطم بسقف القبو، كما حصل مع «آليس» عندما تناولتُ المشروب السحريَّ وأكلتُ بضع لقمات. تابع وهو مطبق العينين. أنا أحكي لك ما أحكيه ببساطة وسهولة، وهو الأمر الوحيد الذي أتذكّره بدقّة وتفصيل، في كلّ ما مرّ من حياتي سابقًا، أستطيع حتى أن أروي لك، كيف كان يحرّك رموش عينيه، لكنّ هذا ليس مهمًا، لأنّني سأراه مجدّدًا، ولا داعي لاستحضار المزيد من تفاصيله.

كنت أكبر... وما زلت أنمو، واختفى العالم كلّه. صرت أستحوذ على مساحة القبو كلّها، وكان يمسك بيدي ويتأتئ، ثم ضغطت بأصابعي، وهززت برأسي. سحب يده منّي. وابتعد خائفًا! ثم نظر إليّ بقسوة وعاد للقفز بعيدًا منّي، كأنّه استيقظ فجأة من كابوس. رمى الأكياس السود جانبًا، وقال: ممكن نموت بأيّ لحظة، بدّي آخدك لبيت عيلة برّات هاد المكان، ما

في قصف هونيك. بتكوني بأمان. أنا برجع بعد يوم أو يومين لا تقلقي... اتّفقنا؟ لازم أربطك معي... بإيدي... هي وصيّة سعد، أنا ما بتخلّى عنك، وعديني أنّك تنفّذي كلامي!

ثم أومأ برأسه بعلامة القبول، ونظر في عينيّ وهو يحثّني على أن أفعل مثله. أنا حفظت كلماته تلك... كلمة... كلمة!

أدرت وجهي وقمت من مكاني، وشددت الحبل من النافذة، وعاد للصراخ: بدّك تسمعي منّي... ما عندك خيار.

اقترب منّي، محاولاً فكّ الربطة من النافذة العلويّة، فدفعته عنّي وصرخت، ثم عاد القصف، كان قريبًا منّا، قال: بدّك تموتي؟ الموت هون أسهل شي... خلّينا نطلع من هون بسرعة!

وهززت رأسي نافية.

عاد القصف للمرّة الثانية، وقال: دقائق وبرجع، لازم نخرج فورًا... باخود شويّة صور... دقايق وبرجع... لازم تجي معي... هي وصيّة وما بقدر خالفها!

خرج حسن.

أنا كنت أنوي فكّ قيدي، كنت أحاول فكّ الرباط في غيابه، لم أحاول قبل تلك اللحظة معرفة أشكال الحبال التي رُبّطتُ بها، لم أنظر إليها بدقّة، ولم أحاول التعرُّف إلى شكل السوار الأحمر الذي تركته آثار الحبال طوال سنين مضت. كانت تشبه حفرًا في لحمي، ولونها أحمر فاتحًا يميل إلى اللون الزهريّ، حتى عندما تقوم أمّي بفكّ الربطات، كانت تبقى تلك الآثار في المعصمين،

وبينما استمرّت أمّي تنقل الحبل بين يد وأخرى، لم أحاول حتى لمس السوار الأحمر الذي نحتته الحبال فوق معصمي. كان قد تحوَّل إلى جزء من شكل يدي.

خرج حسن من باب القبو، والكاميرا في يده، وآخر ما لمحته منه، كان أصابع كفِّه التي اختفت مع إطباق باب القبو.

أنا هنا وحدي منذ زمن لا أعرف تحديده. خلعت قميصي، وبنطالي، بقيت في قميص ناعم طويل بلا أكمام، لون قميصي أصفر، وكنت أرتديه تحت سترة قصيرة، القميص الأصفر كانت مهمّته تغطية مؤخرتي. هو قميص، لكنّه مثل فستان يصل إلى الركبة، قدَّمته لي إحدى النساء مع بنطال أسود. الناس هنا كرماء ويقدِّمون للآخرين ما يملكون، خصوصًا الثياب القديمة. كانت تنتشر في الطرقات مجموعات من الألبسة البالية المرميّة في الشارع، والتي تختلط مع بقايا الزبالة.

قميصي جديد ونظيف، ليس أفضل حالاً من الثياب التي كانت تأتي بها أمّي من «سوق الحراميّة». قميص تلوَّث الآن، لكنّه احتفظ بلونه المضيء في النهار، وعندما تسقط عليه أشعّة الشمس، يبدو لونه مثل النار، وإن كانت الشمس تحرقني، لكنّني أحببت أشعّتها فوقه. أمّي كانت ترتدي الألوان التي لا

أحبّها عادة، وكانت لها عادات غريبة في الاحتفاظ بأشيائنا، أذكر ألوان ثيابها بدقّة، رغم أنّ وجهها يبقى منه لونه الداكن والمحمرّ، وشعرها كان مموّجًا بين البنّيّ والأبيض. . . كانت قد شابت مبكّرًا، وصار الشيب لونًا لرأسها، لكنّها لم تعمد إلى تلوين شعرها. مرّة فعلت، فظهرت مثل دائرة سوداء تعلوها مجموعة خطوط رفيعة حمراء متشابكة، قالت إنّ اللون الأحمر غير مناسب لعمرها، وهذا مكلف بالنسبة إلى حياتنا ولن يغيّر في حياتها شيئًا! ولم تعاود فعل ذلك مطلقًا. اهتمامها بالثياب التي تنام بها يثير فضولي. كانت حريصة على كيّ ملابس نومها، وكانت ألوانها مبهجة وبرّاقة، ثياب ملوّنة ونظيفة ومكويّة للنوم، وهو الأمر الذي لم تفعله بالثياب التي تخرج بها، أحدّثك عن ملابس نوم أمّي الآن ومع أشعّة الشمس وقميصي الأصفر، لأنّها كانت تملك عباءة للنوم مثل لونه تمامًا، وأذكرها بكلّ تفاصيلها، لون العباءة الأصفر نفسه تحت أشعّة شمس نافذة القبو، لكنّ ملمس القماش يختلف، أصابعي تعرف ذلك. لقد ظلّت تلك العباءة معلّقة في بيتنا حتى السنة الماضية، قبل أن تحوّلها أمّي إلى قطع قماش صغيرة لتنظيف البيت.

يجب أن أنتبه في حال سمعت أيّ حركة أن أرتدي ملابسي، حتى لا يراني حسن في هذه الوضعيّة المحرجة. سيكون لديّ الوقت لأتحرّك قبل نزوله. سوف أسمع خطواته.

أنا ممدّدة منذ يوم كامل، أشعر بأنّني أحسن حالاً مع القميص الأصفر وألوانه تحت خيوط الشمس. رغم أنّ رأسي

يدور أحيانًا، ويحرّكني وأنا نائمة، رأسي هو مركز دائرة، وكلّ شيء يدور من حوله. غفوت مرّتين أثناء دوران رأسي واستيقظت على صداع حادّ، كان الظلام مطبقًا والسماء لها ضوء غريب، ولم أرَ القمر، ربَّما نحن في بداية شهر جديد حتى يختفي البدر. السماء تنير ظلال الأشياء هنا، وكان شيء ما يدبّ بين فخذيّ، لكنّه ناعم وصغير، ولا يدعو إلى الخوف، كان يدغدغني، ولا حاجة بي لاكتشاف ما هو، لأنّه بالكاد يلامس جسمي. وكنت أشعر ببعض الرطوبة والبرودة اللذيذة، التي جعلتني أصحو ليوم إضافيّ، واستطعت استعادة قوّتي. وهذا كان كفيلاً لأنتبه إلى أنّه عدا عن لون قميصي الأصفر لم يكن هناك سوى لونين هما الأبيض والأسود من حولي، رغم أشعّة الشمس! هل تعرف أنّه في كتاب الثعالبي هناك فصل اسمه "في ضروب الألوان والآثار"! وتخيّل أنّه كان يشرح معاني الألوان، ويخصّ الأبيض والأسود باهتمام مختلف عن بقيّة الألوان. كنت في تلك اللحظة، أستعيد طاقتي بعد أن تعرّيت، وشعرت بأنّ ما قرأته في ذلك الفصل كان حقيقيًا، هناك عشرات الصفات يحملها اللون الأبيض، وكلّ صفة تخصّ مفردة تجعلني أفكّر في أبيض مختلف. هل تستطيع أن تفهم معي ما يعنيه هذا؟ يعني أنّني قادرة على رسم ألوان لانهائيّة من لون واحد، أبيض. هجان. خالص. ناصع. يقق. لهق. واضح... كلمات كثيرة تعني الأبيض كتبها «الثعالبي»، لا أذكرها الآن جميعها. كنت حفظتها قبلاً مع معانيها من الكلمات الملحقة بها، حتى إنّ

اسمي هو إحدى درجات الأبيض في صفة الظبي! لقد بحثت عنه في هذا الكتاب، وكان اسمي أحد معاني الألوان والصفات!

في النهار، ألعب بمعاني الأبيض. في الليل، ألعب بمعاني الأسود. وكان الأمر أكثر صعوبة، لأنني لم أتمكّن من الكتابة في الليل. كان سواد الليل بين الأدلم وهو الشديد السواد، وبين الظالّ، والأسود الأربد، ويكون لونه مع الغبرة، ثم هناك الآوى، وكان هذا عند الفجر وكنت أعتقد أنّه سيكون أزرق، لكنّ ذلك السواد كان أحوى، وهو الذي يكون بين الأسود والأحمر! وكان هذا مفاجئًا لي، لم أعد أذكر كلّ معاني الألوان التي حفظتها غيبًا من ذلك الكتاب، وصنعت لكلّ صفة من صفات تلك الألوان لوحة، وهي كما قد تخمّن أنت لا تزال مخبّأة في صندوقي... الكتاب أيضًا هناك. رغم أنّني نسيت الكثير من كلماته. هو الكتاب الوحيد الذي كنت أستخدمه مع رسوماتي، كانت المعاني والصفات تساعدني على الرسم، وعندما قرّرت أن أغيّر في قصّة «آليس في بلاد العجائب»، استعنت به. سأخبرك عن هذا الأمر، أنا في يقظة تامّة وأشعر بأنّني أفضل، لقد فكّرت في أنّ الأمر الذي كان ينقص رحلة «آليس إلى بلاد العجائب» هو الأسماك الطائرة. لو كنت أعيش في ذلك الزمن الذي كُتبت فيه الحكاية، لاقترحت على كاتبها أن يضيف مجموعة أسماك تطير في دروب الغابة التي تجتازها «آليس». أسماك تظهر فجأة وتختفي، تدور حول رأس «آليس» مثل الجنّيّات، وتطلق فقّاعات في سماء الغابة، وهذه الفقّاعات

يجب أن تكون ملوَّنة، وكلّ سمكة لها فقّاعاتها الخاصَّة بلونها، وهذه هي أنوار الغابة التي كانت تنقص الحكاية، ومن الممكن أن تختفي وتظهر بين وقت وآخر، وأجنحة السمك التي تطير بها تخرج منها المياه على شكل نافورة صغيرة تصعد إلى الأعلى ثم تنزلق في أفواه الأسماك التي تحمل بحرها تحت أجنحتها... كان هذا سيكون مكمِّلاً للحكاية، لقد رسمت تلك الأسماك التي قرّرت إضافتها إلى حكاية «آليس»، واستعنت بكتاب الثعالبي، وأنا أبحث عن صفات الألوان، لأضع اسمًا لكلّ سمكة ولوحة. كانت أربع سمكات فقط، وهي أيضًا تنتظرني في صندوقي تحت السرير. كثير من الحكايات التي رسمتها، أضفت عليها ما كنت أودُّ اقتراحه. حكاية «الأمير الصغير»، كنت وددت لو أنَّ كاتبها أضاف مجموعة أخرى من الكواكب، مختلفة الحجوم، كواكب هي ساعات عملاقة تحيط بكواكب «الأمير الصغير»، وأصوات عقارب الثواني هي التي تضبط حركة دورانها حول نفسها، تخيّل أنّ هناك مجموعة من الكواكب العملاقة على هيئة ساعات تتدلّى منها العقارب والأجراس... كان يكفي أن يمرّ «الأمير» بها مرورًا سريعًا... أظنّ أنّ هناك علاقةً ما بين كواكب الساعات وكواكب «الأمير الصغير»... كنت سأكمل الحكاية لو استطعت ذلك، رسمتُ الساعات العملاقة فقط، وهي لا تزال في صندوقي.

لقد ظننت أنّني سأمشي مرّة ثانية وأتحرّك وأحتفظ بطاقتي، بعد صحوتي على الأبيض والأسود، لكنّ هذا استمرّ لساعات قليلة، أنا أكتب أقلّ الآن. لا بدّ أنّك لاحظت أنّني لم أعد أرسم الحروف كما في السابق، لست قادرة على ذلك، وأخشى أن ينتهي قلمي الأزرق الوحيد، وأرجو ألّا تنسى رسم الحروف الذي اعتدتُ استخدامه في بداية أوراقي. لا أظنّ أنّني سأعود إلى الكتابة بأبجديّتي هذه قبل أن يعود حسن، وأخرج من هذا المكان، لكنّني أودُّ تذكيرك بالأبجديّة الخاصّة بي، والتي كتبت بها مجموعة كبيرة من الحكايات المرسومة. كان أخي يجد صعوبة في قراءتها، حتى كتبتها ضمن صفحة خاصّة مع الشرح ولوّنتها. قرأ مجموعة حكايات، وكان مهتمًّا بقراءة ما أكتبه وأرسمه كلّ يوم. ثم نسي الأمر. وأنا راقبت نسيانه بصمت. سأحاول وضعها بالترتيب لك، كما شرحتها لأخي:

الألف تنتهي بطير له جناح واحد.

الباء تنتهي بطير بجناحين.

التاء تنتهي بعود ثقاب.

الثاء فوق نقاطها الثلاث تضع مظلّة.

السين تنتهي بسرير بقوائم عالية.

الجيم والحاء والخاء، تنتهي بأصابع كفّ.

الدالّ والذالّ تنتهيان بقوس يتوسّط سهمًا ينتهي بمثلّث.

الراء والزاي تنتهيان بهلال.

العين والغين تنتهيان بوردة من أربعة فصوص.

الطاء والظاء والضادّ تنتهي بأفعى.

اللام تنتهي على شاكلة ولد صغير، يضع شالاً حول رقبته. الشال يطير في الهواء، والولد يجلس فوق كوكب صغير.

الميم تنتهي بقارب شراعيّ.

النون هناك شمس فوق النقطة.

الهاء تعلوها قبّعة وفراشة.

الواو تنتهي بعين كبيرة برموش طويلة.

الياء فوقها ابتسامة قطّ مع شاربيه.

أبجديّتي هذه استخدمتها كما لاحظتَ في ما كتبته سابقًا،

الآن توقّفت. أستخدمها فقط في نهايات الأحرف. عندما تتوسّط الأحرف الكلمة أو تبدأها، أكتب الحروف بشكلها الطبيعيّ... هذا يجعل الكلمة تسبح في بياض الصفحة. ألا توافقني الرأي؟ أشعر بأنّني أفضل حالاً، لقد تذكّرت أبجديّتي! رغم الحرّ ووهج الشمس الحارق، والليالي التي كنت أخلع فيها ملابسي حتى لا تلتصق بجسدي وتحرقني الحبيبات الحمر.

كانت أمّي تحضر كثيرًا في هذه الليالي التي أتعرّى فيها، كان وجهها في الحلم غائمًا، لكنّني عرفت أنّها أمّي. تقف قربي، وتربط معصمي بمعصمها، ثم تركض وتجرّني، وكنت أتدحرج وراءها ولا أصرخ.

في الليل، أفتح أزرار قميصي. صدري كما هو كبير ويثقل جسدي. جلدي لم يتغيّر، صار ملمسه دبقًا وطعمه حامضًا. أتذوّق قطرات العرق النازلة فوق جسدي، كان بإمكاني أن أشرب من جسدي، أمسح بطني المتعرّق بغزارة بكفّي، ثم أمصّ أصابعي، لكنّ الطعم كان مالحًا ويزيد حلقي جفافًا. في النهار، يتحوّل لون جسدي إلى أحمر. هناك حبيبات حمر منتفخة بدأت تطفو فوق بطني، وكنت أتحسّسها في الليل، وأنا أنظر إلى النافذة. لم يظهر الكلب الذي كان يقترب بين وقت وآخر من النافذة، رغم أنّني انتظرته. قال حسن لي إنّ هذه المنطقة خطرة وتتعرّض لقصف مستمرّ، ولا أحد يقترب منها. منذ يومين، لم أسمع دويّ قذائف، لِمَاذا لا يظهر الناس إذًا؟ لا أظنّ أنّني قادرة على الصراخ من جديد؟ يجب أن أصرخ! أن أكتب في النهار،

وأن أقرص أذني وأعضّ لساني، وأتأكّد أنّني ما زلت على قيد الحياة.

كنت أقضم ثلاث قضمات من التفّاحة الأخيرة، وكانت حمراء، وقد ذبلت بالكامل، لكنّني استطعت مضغ بذراتها لوقت طويل واستمتعت بمرارتها، بقي يوم واحد وتنتهي التفّاحة، كانت الأخيرة من الكيس الذي أتى به حسن. لبست قميصي ثانية، وأخفيتها تحته عند بطني. لكنْ، في الصباح كان القميص الأصفر مبلّلاً بالماء، وكنت قد تعرّقت بشدّة ليلاً، والتفّاحة تدحرجت واستقرّت أسفل قدميّ.

أحتاج إلى فصل جلدي عن القميص، والحشرات التي كانت تدور حولي، بدأت تزعجني وتلسعني. لقد تبوّلت في ثيابي ليلاً، وكلّ ما فيّ يحرقني. بين فخذيّ أشعر باكتواء، والذباب اختفى وظهرت مكانه حشرات طائرة ناعمة وصغيرة. لم تكن تحوم حولي دائمًا، كانت تتحرّك ككتلة واحدة في أماكن عدّة، لكنّني استيقظت في صباح ما، لم أعد أذكر متى كان هذا! وكانت كتلة الحشرات الناعمة فوق رأسي مباشرة، حتى إنّني أكلت إحداها، وسعلت بشدّة، ابتلعت حشرة وأنا أتنفّس، كانت بين شفتيّ وأنا نائمة، وقد خفت، وبقيت مستيقظة في الليلة التي تلت تلك الحادثة. بعد ابتلاع الحشرة، كدت أختنق! وكان حسن لا يأتي، غاب عن رأسي نهائيًا، وأنا الآن مهتمّة فقط بقميصي الأصفر وملمس جلدي الذي تحوّل إلى بحيرة طافحة بالحبيبات الحمر، وجلدة رأسي الملتهبة، والتي كنت أهرشها طوال فترات يقظتي

التي صارت قصيرة. أنام لفترات طويلة، وأستيقظ قليلاً، لم يعد بوسعي أن أكتب إليك كلّ التفاصيل، كان لديّ المزيد من الحكايات، وكنت أنوي إعادة تدوير حكاياتي السابقة، كما تفعل المرايا الصغيرة في الكرة الجنّيّة، لكنّ هذا الآن صعب. أنا مرهقة، وقميصي الأصفر يحرق جلدي مع قطرات العرق والشمس الملتهبة في النهار. مع ذلك وأنا ممدَّدة في ذلك النهار، أنظر إلى الحصير البلاستيك الذي اختفى لونه ولم يظهر سوى لون الغبار، كنت مع ذلك أنظر إلى جسدي الملقى على الفراش الإسفنجيّ الرقيق، وكان ذلك غريبًا، أن أراه للمرّة الأولى، وأكتشف أنّني لم أكن على هذه الدرجة من القباحة التي كنت أراها في عيون الناس وهم ينظرون إليّ. كان هناك شيء غريب يحصل، إذ بدأت أشعر بخدر في قدميّ، وأنّني لم أعد قادرة حتى على تحريكهما. أظنّ أنّني بخير، وكلّ ما أحتاجه بضع قطرات من الماء في حلقي الناشف. سوف أرتدي الجاكيت السوداء من جديد، ربّما يعود حسن فجأة.

نمت لوقت طويل، ولا أعرف ما تفعله الطيّارة سوى أنّني أرى في السماء غبارًا. أعرف أنّه يمكن للرجل الجالس داخل الطيّارة أن ينظر إلى الأرض ويرى البيوت. رسمت البيوت على شكل بشر ينامون، والجبال كذلك. الجبال تنام بعمق أكبر. كانت للبيوت آذان وشفاه، وللجبال أنوف ضخمة وعيون جاحظة. كلّ ما فكّرت فيه كيف تنظر عيون البيوت والجبال إلى الطائرات، وليس العكس!

هل جرّبت أن ترسم جبلاً نائمًا، فوقه طيّارة، وفي أسفله بيت. مجرَّد بيت، ليس على طريقة البيوت التي نرسمها في الحكايات. فكّرتُ في بيت عبارة عن خطّين متوازيين، جدرانه من الزجاج. لو أنّ هذا البيت يخرج من أوراقي الآن، وأبدأ تشكيله، لا يشبه البيت الذي عشنا فيه، ولا هذه البيوت الملتصقة، ولا الحارات التي عرفتها. بيت وحيد. بلا جدران متلاصقة، حيث لا

داعي لأن تسمع الجيران وهم يبوّلون ويصرخون ويتغوّطون. البيت الذي أريده سيكون على شكل مكتبة الستّ سعاد. جدرانه من زجاج. سألوّنها كلّها. سأخبر حسن عندما يعود بما أفكّر. سأترك مساحة بين الجدران الزجاجيّة وصفوف الكتب ليتاح للضوء أن ينفذ عبر الألوان، وسأكون هناك تحت صفوف الكتب وبين أبطال الكتب المصطفّة بانتظام، وسيكون هناك الكثير من رزم الأوراق... وأقلام التلوين.

الطيّارة الآن تحوم في السماء.

الطيّارة لا تعرف ما أفكّر فيه.

الرجل الجالس في الطيّارة ينظر إلى البيوت، ربّما لا ينظر.

كيف تبدو البيوت من السماء؟

هل ستكون البيوت بألوان رماديّة فقط؟

كنت سأروي لك حكاية الحصار الذي رواه حسن، لكنّني لست قادرة على استرجاع تفاصيل ما قاله. كان يتأتئ حينذاك، وكنت أنمو وأكبر مثل «آليس». وأظنّ أنّني أفقد قدرتي على التركيز مجدّدًا.

أفكّر في الكتب، وفي ما يجب أن أكتبه في هذا الوقت الطويل... الطويل الذي لا ينتهي...

منذ يومين لم أكتب.

الألوان تطير منّي، وأنا الآن في كوكبي السرّيّ الطينيّ، وأفكّر في أصابع حسن على باب القبو وهي تطبقه بشدّة.

لقد نهضت بتثاقل من يومين، وكنت أمشي في القبو، أمشي وأمشي وأخبط حديد النافذة والعقدة لا تنفكّ، أدور في الزوايا وحول رزم الأوراق. قلمي الأزرق في يدي. وهو على وشك الانتهاء، لكنّه لا يزال يكتب، أحمله وأمشي، وأحشره في الفراغ بين الحبل ومعصمي، وأحاول فكّ الربطة، لكنّها لا تنفكّ. أمشي بسرعة. أقفز فوق رزم الأوراق. أنظر إلى الشارع الفارغ، ثم إلى أرض القبو، كانت كتلة إسمنتيّة واحدة، غير مبلّطة. الغبار صار يغطّي كلّ شيء هنا، حتى الوسادة الإسفنجيّة الصغيرة التي تحرق رقبتي في الحرّ، والحصير البلاستيك ورزم الأوراق. أحمل

مشرط الأوراق وأمزّق رزم الكرتون، وأنثر الأوراق البِيضَ في أرض القبو، يصير أكثر بهجة. فأتابع نثر الأوراق. أحفر على الجدران بالمشرط الصدئ الذي وجدته بين رزم الكرتون، صريره يبهجني، الخطوط بِيضٌ على حائط الإسمنت. أرسم بسهولة، أحفر الحائط بسهولة، هنا على الحائط أرسم الخوف أيضًا. ربّما أتخيَّل الآن ولست متأكّدة، لكنّني أتخيَّل أنَّ الكتابة هي الخوف فقط، ولا أجد لونًا للخوف! هل توجد جمل تستطيع وصف اللون الذي كانت تتركه القذائف الكيماويّة؟ هل كان أزرق؟ رماديًّا مائلاً إلى الزرقة؟ هل كان شفّافًا وأزرق؟ أنا وصفت اللون بالبنفسجيّ. ولكن! هل كان تمامًا هكذا؟ لون الماء عندما يختلط بين الأزرق والأخضر! هل يكون هو نفسه لون آثار الغاز على جدران البيوت؟... هل يكون هذا هو لون الخوف؟

هل سأختفي، سأموت؟

رجلاي لا تتوقّفان عن المشي في القبو.

أنا متعبة.

لا أتوقّف عن المشي.

يرتطم جسدي بالجدران ولا تتوقّف قدماي.

هنا، كلُّ ما يدور حولي رماديّ، حتى الولدان الصغيران! كانا رماديَّين. ألم أخبرك قصّتهما؟ ربَّما نسيت. أشعر بجفاف في حلقي. لكنّ يقظتي عادت!

كان الولدان يأتيان منذ أيّام، وبشكل متكرِّر. لم أجرؤ على

مناداتهما بداية. لكنّني فعلت قبل بضعة أيّام. وعندما رأياني، هربا. راقبتهما من أيّام وهما يتجاوزان الزقاق، ويجرّان عربة خشبًا صغيرة، استمعت إلى أحاديثهما، وهمساتهما، أظنّ أنّ أحدهما كان في العاشرة والثاني أصغر منه. الولد الأكبر يحمل عصًا على ظهره ويربطها بحبل مثل بندقيّة. العصا رفيعة، وكانت عبارة عن غصن شجرة له فروع ملتوية في منتصفه، لكنّ فرعًا صغيرًا كان مستقيمًا على شكل زاوية قائمة.

كان الولد الكبير يضع على الغصن ذي الزاوية القائمة سبّابته. وكانا يضحكان. العربة الخشب كانت ممتلئة بالعشب. هي بثلاث عجلات. العجلة الأماميّة ضخمة، بينما العجلتان الخلفيّتان أصغر قليلاً. لماذا كانا يملآن العربة بالأعشاب؟! حسن قال إنّ الناس يأكلون الأعشاب البرّيّة. قال إنّ الحصار صعب، وكان الولدان يبدوان يضحكان، وهما يتنقّلان بين الركام. كانا رجلين صغيرين لا ولدين، كيف أشرح لك هذا؟ كانا يتحرّكان بخفّة. جسداهما يتحرّكان كرجلين، لكنّهما مجرّد ولدين. اكتشفتهما في صباح حارّ. الصباحات هنا أيضًا خانقة. والسماء زرقاء، كانت تدخل عبر النافذة التي ربُطت بها خيوط من أشعّة الشمس. أمدُّ أصابعي فتختفي! إنّها حقيقيّة، لكنّها اختفت وأنا أستيقظ على ضجّة حركتهما في الزقاق أمام البناء المهدّم.

أشعّة الشمس، رغم اللهيب، تمدُّني بالحياة. الذرّات التي تظهر عبر الخيوط المضيئة تلامس خدّيّ.

حركة الولدين وأشعّة الشمس جعلتاني أقفز. كانا في البناء

المجاور الذي خرج الكلب منه بالكفّ. الولد الصغير كان بين قضبان الحديد التي نفرت بين الركام مثل أفاعٍ. هي لا تشبه أفاعي «الأمير الصغير». الولد الكبير كان ينبش ويُخرج أواني وطناجر، ثم يرمي بها جانبًا. الصغير يجمع بعض القضبان الحديد، يضعها في حجره، ثم يضحك ويشير إلى أخيه، كما أفترض أنّه أخوه، بعد أن قال له: أمّك بتشتري فيهون ربطة خبز...

ثم يقفز والفرحة تغمر وجهه.

يضحك الولد الثاني. كان يرتدي بنطالاً أزرق وقميصًا أحمر، لونا ثيابه مشعّان تحت الشمس. الصغير ذو الثياب المتّسخة، نصفه العلوي شبه عار، نحيل. يلبس "تي شيرت" ضيّقة. يظهر بطنه منها، امتلأ جسده بالغبار وشعره أيضًا وهو يغوص في الركام، ثم يرمي بقضبان الحديد. عندما نزل، نفض يديه من الغبار، وتناول «كمشة» من الحشائش، أظنّ أنّها «الهندباء»، ثم قضمها وهو ينظر إلى القبو، واتّجه نحوي. كانت النافذة مكسورة الزجاج، وهو يطيل النظر، فاختبأتُ بجوار الحائط. التصقت به. كان بإمكاني أن أطلب منهما المساعدة، أن أدقّ على الحائط. عضلة لساني توقّفت. كنت سأعود لإغماض عينيّ حين يغادران، لكنّ إصرارهما على معرفة ما يوجد داخل القبو ثبّتني في الحائط، وتوقّفت عن التنفّس. كان الصمت قاسيًا ولا أثر للطائرات في السماء، ولا حتى هناك طنين حشرات. فقط ثلاث ذبابات تحوم في القبو وتصدر طنينًا. كانت إحدى الذبابات

كبيرة ويميل لونها إلى الأزرق، حجم الذباب عملاق في هذا المكان. وربَّما لديه ما يأكله. مدّ الصغير رأسه إلى الداخل وكان ينظر إلى الأمام وإلى رزم الكرتون. ولو نظر إلى أسفل الحائط لاكتشفني، لكنّه تراجع وقال: ما في شي هون. ردّ الثاني بعصبيَّة: يلّا... خلّينا نرجع قبل ما تجنّ أمّك!

بالتأكيد هما أخوان، كان الشبه بينهما واضحًا. سمعت أصوات ارتطام القضبان فوق العربة التي كانا يجرّانها ببطء، ثم رفعت رأسي من جديد. أظنّني كنت أتحرّك مثل سحلية على حائط، ثم شاهدتهما وهما يختفيان في الزقاق، وبعض قضبان الحديد تقع من العربة فيعاود الكبير لمّها، وهو يضع عصًا أمامه ويديرها في الاتّجاهات كافّة مثلما يفعل الرجال بأسلحتهم هنا، فيصرخ أخوه به ليساعده على جرّ العربة الثقيلة. خلال دقائق اختفيا.

المرّة الثانية، مرّا بسرعة، لم يتوقّفا. كانت الحشائش قليلة، ويجرّان عربتهما ركضًا.

المرّة الثالثة والأخيرة، كانت العربة ممتلئة بقضبان الحديد. وهناك تغيير! لقد لوّنا العربة بلون أخضر، يشبه اللون الذي كنت أخترعه عندما أجمع الأزرق والأخضر القاتم. وكان هذا اللون يتوزّع على جانبيْ العربة بطريقة غير جيّدة، تبدو بعض الفراغات التي تُظهر اللون البنّيّ القديم. لقد لوّناها بطريقة غير متقنة. لكنّ العربة بدت جديدة ومختلفة! وقضبان العجلات كانت ملوّنة بالأزرق الفاتح. وتمّ تزيينها بشرائط بلاستيك بيض، هذه الشرائط

كانت مجرّد أكياس من النايلون مقصوصة على شكل حبال ناعمة وملفوفة على شكل ورود صغيرة. وكانت الأعشاب في العربة مكوّمة مع جذورها والتراب عالق بها. خيوط الشمس جعلت جذورها ذابلة. في المرّات السابقة، كانت الجذور مجزوزة... ربّما الأعشاب من نوع «الخبّيزة» هذه المرّة... لست متأكّدة! لكنّهما وهما يمرّان يتصايحان، ويبدو الصغير غاضبًا، سقط تراب من العربة. وكانت هناك طيّارة، سمعت صوتها. لكنّ الصوت يبتعد. الولدان يراقبان السماء. الصغير تعثّر ووقع، والكبير ضحك بشماتة زادت من غضب الصغير. كان نحولهما غريبًا، وكنت أفقد طاقتي، وقرّرت أن أصرخ لهما. هززت النافذة وتأتأت. وخرج صوت منّي... صراخي كان عاليًا، وهما تجمّدا في مكانهما، مددت يدي لهما، لوّحت بيد، وحاولت أن أمدّ الأخرى المقيّدة. تسمّرا في مكانهما، يبدو أنّ الضوء في الخارج جعلني غير مرئيّة. كنت أصرخ وأخبط على جدار الحائط وهما متسمّران في مكانهما... وسمعت الزعيق الحادّ الذي خرج من حنجرتي، وشعرت بمزيد من الذعر، لأنّ هذا الصوت الذي خرج منّي أفزعني. صرخ الصغير: في وحش جوّا...

نهره الكبير: ما في وحوش هون... أمّي قالت إنّ الكلاب صارت وحوش من الجوع. اسكت... تعال معي.

أمسك بيد أخيه، وصوّب عصاه إلى الجهة التي كنت أصرخ منها، ثم حرّكها باتّجاهي وصرخ: طاخ... طاخ... طاخ. كان يصوّب العصا نحوي، وسقطتُ على الأرض!

قال لأخيه: شفت! ما في شي...

أنا ذُعرت أكثر، فوقفت من جديد، وشعرت بألم في صدري، وعدت إلى الصراخ، فركض الاثنان، وسقطت العصا. صرخ الولد الكبير: بارودتي... بارودتي.

عاد لالتقاطها، وركضا بالعربة واختفيا بسرعة.

في الأيّام المقبلة، سيختفيان نهائيًا. مع ذلك، رأيت أصابعهما وأيديهما الصغيرة ذلك النهار، وكانت مثل يديّ تمامًا، تتحرّك بطريقة غريبة، كأنّها ستفلت من جسديهما. لا بدّ أنّهما يدركان سرَّ الأيدي. لا بدّ أنّهما يشتركان معي في سرّ أوّليّة الأيدي على اللسان، والأصابع على الشفتين. أصابعهما كانت تتحرّك، مثل أقدام ترقص. وكنت أراقب أصابعي بعد اختفائهما. يداي الاثنتان تتكلّمان. قدماي تمشيان وتغضبان وتكرهان. يداي مربوطتان بهما، تتحدّثان مع الحبل. أنا أرسم بهما. كان عليّ اكتشاف أنّ سرَّ الأيدي لا يكمن فقط في أنّها تتحرّك. هي قادرة على صنع وجودها المستقلّ. هكذا كانت أعضاء جسدي، كلّ منها لها استقلاله عن العضو الآخر، كلّ عضو في جسدي يشكّل كائنًا، ليس في رأسي حيث كوكبي الطينيّ، وليس في قدميّ حيث تتحوّلان إلى دماغ، وليس في أصابعي حيث تتحوّل إلى لسان، ولكن في كلّ الأعضاء مباشرة. مؤخرًا، قلبي صار في مكان آخر، ترك مكانه. اختفى ثقل الجهة اليسرى من صدري، كان هناك فراغ. أمر غريب أن أحدّثك عن ولدين يجرّان عربة خشب تحت سماء وطائرة، والسبب الذي جعلهما يختفيان، ثم أنتقل

لاختفاء قلبي، وحسن الذي خرج ليصوِّر القذائف ولم يعد!

الولد الكبير الذي كان ينظر برعب إلى القبو بعد أن سمع صراخي، وفتح عينيه، لم يبكِ، أمسك بيد أخيه وانطلق هاربًا مع العربة التي تعثّرت، ثم سقطا. لقد أخبرتك بهذه التفاصيل قبل قليل. ستشعر بالتكرار، لكنّك صرت تعرف الآن نظريّتي عن الحكايات الدائريَّة المتقاطعة المركز، والتي لا تكتمل إلّا بالإعادة والتفاصيل.

كما أخبرتك بأنّهما ركضا واختفت معهما الألوان، ومنذ تلك اللحظة لم أرَ ألوانًا جديدة بعد اختفاء الولدين.

لكنّني فعلاً أفكّر الآن... أين الولدان، وأين يسكنان؟

هل اعتقدا أنّني مجرَّد شبح؟ ولماذا لا يمرّ الناس كثيرًا من هذا الزقاق. أين اختفى الناس؟

ربَّما يخبر الولدان أحدًا ما عنّي. هل أنتظر حسن، أم أذهب معهما؟

سأضيع من حسن لو ذهبت معهما، لم أعد مهتمّة بالتفاصيل هذه. ما يهمُّني، الآن، الولدان الملوّنان. سيعودان، سأعلّمهما كيف يلوّنان العربة بشكل جيّد، وكيف يمزجان الألوان.

لقد ركضا بسرعة، وهربا. هل لديهما عائلة؟ لديهما أمّ؟ أو ربَّما ستختفي عائلتهما كما فعل الجميع معي! ألم تتحوّل أمُّ سعيد إلى تمثال نصفيّ من الطين؟ ربَّما كانا من ورق، وتناثرا بفعل النيران والقذائف. أنا أعرف أنّهما كانا خائفين، ويركضان. وليس

من الممكن أن يتحوّلا إلى تمثالين من الطين كما حصل مع أمّ سعيد. ألا تزال أمُّ سعيد هناك... نصف جسد؟ هذا يعني أنّنا لسنا من طين فقط، ولكن من ورق، مثل أوراق الرسم. ومن الممكن أن يتحوّل جسدي ويداي هاتان إلى مجموعة قصاصات ورق. لمَاذا تحوّل القذائف الأجساد إلى أجزاء صغيرة؟

مزعجة حركة الذباب فوق رأسي! لكنّ الذبابة التي أمامي علقت!

الذبابة علقت فوق نقطة سوداء يبدو أنّها لزجة. كيف علقت؟ لا لزوجة تحيط بي. كلّ ما حولي يابس وناشف.

الذبابة عالقة! ولا تشبه جسد أمّ سعيد، لم تنقسم! لكنّها عالقة وتئزّ... إززززز... إززززززز، جناحاها زرقاوان. لا... جسمها أزرق، هل نقول جسم الذبابة؟ هل لها جسم؟ تعرف أنّني لست متمرّسة في اللغة، وإن كنت أحبّ القراءة مثل حبّي الألوان، لكنّني لست متأكّدة ممّا نسمّي وسط الذبابة. كان أزرق يميل إلى الأخضر.

في هذا المكان، لا يوجد إلّا الذباب وأنا.

الذباب برفقتي ويتأمّل بعضُنا بعضًا. والكلب الذي يمرّ بين ساعة وأخرى، أراه ولا يراني، لكنّ الذباب يراني. نحن: الكلب وثلاث ذبابات وأنا... خمسة كائنات نعيش هنا.

تعلق الذبابة الأولى، ما علقت فوقه كان غريبًا. مجرّد نقطة، تشبه النقطة المكوّمة على شكل مثلّث! هي نقطة دم بين حوافّ

رزم الورق وطرف الحائط. الذبابة عالقة بها، يمكنني فصل أحد جناحيها عن جسمها، وأرى ما يمكن فعله بكتلة الأشياء المحيطة بنا. أعضائي موحَّدة متماسكة، لا تفترق، لكنّ أعضاء الآخرين من حولي تتفرّق ببساطة، ويمكن هنا أن يحدث الأمر نفسه. الجناح الأوّل، يمكن فصله ببساطة، ثم الجناح الثاني، هكذا أفصلهما. لا يوجد حتى صوت لعمليَّة تمزيق الجناحين. هذه ذبابة كبيرة، مشمئزّة! كيف يمكن أن تدعو إلى الاشمئزاز وقد انتزعتُ جناحيها، هما ملوَّنان أيضًا، ليس تمامًا. اللون في الوسط. الجناحان شفّافان. تتخلّلهما عروق سودٌ دقيقة وناعمة، كأنّها مرسومة بريشة دقيقة. أستطيع رؤية إصبعي من خلال الجناح الأوّل الشفّاف. الجناح الثاني الذي انتزعته ببطء مزيَّن بخطوط دقيقة وأكثر نعومة! سحقتُ الجناحين ببساطة بين إصبعين من أصابعي، ثم تحوّلا إلى غبار أبيض... لا شيء... اختفت المادّة، وصار ما بقي من الذبابة يتحرّك ببطء. كان عبارة عن كتلة من اللون الأزرق المشعّ. كيف التصقت أرجلها الدقيقة الصغيرة بنقطة الدم اللزجة؟ ربَّما ليست نقطة دم! ربَّما هي جزء من خراء يتوزَّع قرب الحيطان. الكتلة الخضراء التي تحوّلت إليها الذبابة، ستصير بعد قليل لا شيء. الاختفاء عمليّة سهلة! كان نصف جسد أمّ سعيد يتحرّك تحت صدرها، وصار فجأة في مكان ما. لمَ بقي النصف العلويّ كاملاً؟ كيف تحدث هذه المصادفة؟

كانت الذبابة تفقد حركتها ببطء، وأنا أراقبها. محشورة في تلك الزاوية، بين رزم الأوراق المتكوّمة والحائط وتحت عينيّ مباشرة.

الذبابتان الأخريان اختفتا لدقائق ثم ظهرتا عند النافذة. سأنتزع أجنحتهما، لكنّني لن أفركهما بأصابعي، ألوانها جميلة، بخاصّة تلك العروق الخضر القاتمة الموزَّعة على الغشاء الأزرق الشفّاف. لا أفهم لماذا أتت إلى هنا تلك الذبابة وتخلّت عن رفيقتيها، ثم غطَّت فوق نقطة الدم اليابسة هذه. ثم هذه النقطة... دماء مَن هذه؟

أنا جائعة.

الخدر يصعد إلى ركبتيَ أيضًا.

أنا جائعة.

حلقي جافّ.

لا ماء هنا، ولا طعام، آخر حبّة تفّاح يبست والتهمتها مع بذورها كما قلت لك، الذبابتان عادتا تقتربان منّي، تحومان فوق رأسي، ولا أستطيع تحريك يديّ عاليًا. أريد العودة إلى النافذة قرب الحائط، أريد أن ألقي نظرة إلى الزقاق، ربّما يمرّ الولدان...

أحاول إخبارك بكلّ التفاصيل وأفشل. أفقد ما تبقّى من طاقتي، أحاول الاسترسال لك في تفاصيل الحكايات، لكنّني غير قادرة!

أصابعي تؤلمني منذ أيّام. . . ماذا ستفعل لو كنت مكاني؟

ربَّما أنا هنا منذ أسبوعين أو ثلاثة، ربَّما أقلّ أو أكثر! لا أذكر آخر مرّة أكلت فيها، تفّاحة حمراء أتى بها حسن. . . كان كيسًا من الفواكه! لكنّني أكلت التفّاح. . . مرارة بذوره في حلقي، لكن أكثر ما أفضّله في التفّاح هو بذوره في الداخل.

... كم يومًا مرّ؟...

لِمَ توقّفتُ عن نسل خيطان حجابي؟ كنت أنسل خيطًا كلّ يوم، ولم أعد أذكر متى توقّفت عن فعل هذا. الحجاب كان رقيقًا، وبإمكاني نسل الخيوط التي أحتاجها منه، لكنّني توقّفت. كيف نسيت أن أفعل هذا؟ كيف أفلت الوقت منّي؟ كان هذا أهمّ ما أحتاجه الآن. لكنّني عجزت عن النهوض، أكلت آخر ما تبقّى هنا، حبّات البطاطا المتعفّنة، وحبّتي بصل، وجدتهما وراء رزمة من الأوراق، وأنا أمشي وأمشي بين جدران القبو. يدي الآن فقط أمامي. أصابعي أمام عينيّ. الاحمرار الذي تركته الربطة حول معصمي يكبر. يحرقني. لقد شددته حتى انسلخ جلدي، وخرج الدم من تحت عقدة الحبل، ولم تفلح كلّ محاولاتي لفكّ هذه العقدة.

البارحة، ضربت حديد النافذة برأسي وحاولت فكّ العقدة منه، لكنَّ حسن أحكم ربطها بشدّة. المشرط الصدئ الذي أحكُّ حافّته بالحبل، لا ينفع! صار لون الحبل رماديًّا، وقد كان ثخينًا وقاسيًا.

المشرط يحزّ قسمًا من الحبل، لكنّ الحبل يبدو مثل الحديد. لا يتفتّت منه حتى ذرّة واحدة!

البارحة ليلاً، انكسر المشرط الصدئ قطعتين.

اليوم، إحدى القطعتين جرحت إصبعي، وخرج الدم منها، لففت إصبعي بقطعة مزّقتها من القميص الأصفر، واصطبغت بلون الدم، وتحوّل اللون الأصفر إلى أرجوانيّ.

أكتب إليك وأنا أنام على بطني. أحتاج وقتًا طويلاً لتركيب الكلمات. أصابعي لا تتحرّك. الحشرات تحوم في الغرفة. صار فراشي رطبًا، وشممت الرائحة نفسها التي كنت أشمُّها أثناء مرافقتي أمّي وهي تقوم بعملها في تنظيف مراحيض المدرسة. الرائحة واخزة هنا أكثر، ولديّ قطعة صغيرة من المشرط ما زلت أحكّ بها الحبل الثخين الذي تحوَّل إلى سكِّين فوق جلد يدي. أنظر بطرف عيني إلى نافذة القبو، إنّها قطعة من السماء. زرقاء كاملة. لا هدير لطائرات، ولا دويّ انفجارات. صمت تامّ في عزّ الظهيرة، ورأسي يدور وتتحرّك من حولي جدران الغرفة، ثم يتقدَّمون منّي كما فعلوا في المكتبة عند الستّ سعاد... يجلس إلى جانبي «الأمير الصغير»، وفي يده كواكبه، ثم يضع يده على عقدة الحبل الثخين، يصطفّون حوله جميعًا، «آليس» والفيلة والقط المبتسم والأرنب الأبيض والثعلب الأحمر والأفعى.

كانوا هنا، وأنا أنظر بطرف عيني إلى قطعة السماء وإليهم. أحاول أن أحرّك يدي في الهواء، لكنّني لا أستطيع رفعها، أكتب لك باليد الأخرى، لكنّها ترتجف.

أرض القبو ممتلئة بالأوراق البيض. نثرتها كلّها. أوراقي الملوّنة تحوم حول رأسي. تخرج من صندوقي وتطير بين كواكب «الأمير». ألمحها تتحرّك مثل شاشة تلفزيون.

لا أستطيع التركيز. أنا جائعة. ربّما يعود الولدان بالعربة الخشب!

حكاياتي لم تنتهِ، وحكاية حسن لا تزال في البداية.

حكاية أمّي التي اختفت.

حكاية الفتاة الصلعاء التي اختفت.

حكاية أخي الذي اختفى.

حكاية أمّ سعيد التي اختفت.

حكاية حسن الذي اختفى.

حكاية الولدين اللذين اختفيا.

الكلب الذي اختفى.

الذبابة التي اختفت.

وأنا حكاية سأختفي. ربَّما أكون معك الآن، وأنت تقرأ كلماتي المبعثرة... مثلما يفعل القطّ المبتسم في حكاية «آليس».

أصابعي ترتجف ثانية. القلم لم ينتهِ بعد، لكنّ اللون الأزرق أصبح باهتًا. تختفي بعض الحروف وأُعيد كتابتها... ربَّما أتوقّف في أيِّ لحظة.

أشعر بعينيَ تطوفان بنمل صغير. نمل يخرج منها ويمنع عنّي الرؤية، الرؤية بنّيَّة اللون مثل لون النمل، والنمل ينتشر في رأسي، لقد خرجنا إلى بيت السيّدة التي ستنظّف أمّي بيتها، والتي علّمتني القراءة والكتابة، وجعلت منّي ما أنا عليه، كنّا فقط قد خرجنا...

خرجنا في باص أبيض صغير.

كانت مجرَّد رحلة قصيرة قمنا بمثلها عشرات المرّات!

حلقي جافّ.

رأسي يدور.

لم أعد أركّز في الحروف.

وعليَّ أن أصرخ...

يمكنكم تحميل المزيد من الكتب الرائعة والحصرية
بحجم خفيف جدا على مكتبة جديد بدف
https://jadidpdf.com
جديد بدف
jadidpdf.com

تمشي بلا توقُّف. تكره الكلام. تكتب أنَّ اللسان عضلة زائدة عن الحاجة. تربطها الأمّ بحبلٍ ينتهي بمعصم الأمّ نفسها. تستبدل صوتها والكلمات بالرسوم والألوان، وتكتشف أنّ الحياة إنّما هي تمارينُ على شعور الدخول في الموت، وأنَّ كلّ ما يحصل تمرين، مثل التمرين على الرسم والخطوط والألوان. تصف الموت وتشكّله بالألوان، وتجعلنا ننصت إليه، وسط عالم يتلاشى فيه المعنى والأمّ والأخ والحبيب والقلم الوحيد الذي تملكه.

سمر يزبك: كاتبة سوريّة. صدر لها عن دار الآداب: رائحة القرفة، وصلصال، ولها مرايا، وجبل الزنابق، وتقاطع نيران، وبوّابات أرض العدم.

جديد بدف®
jadidpdf.com

تصميم الغلاف: رندا الفلاح

دار الآداب
هاتف: ٠١/٨٦١٦٣٣
٠١/٧٩٥١٣٥
بيروت - لبنان

ISBN: 978-9953-89-535-2
9789953895352